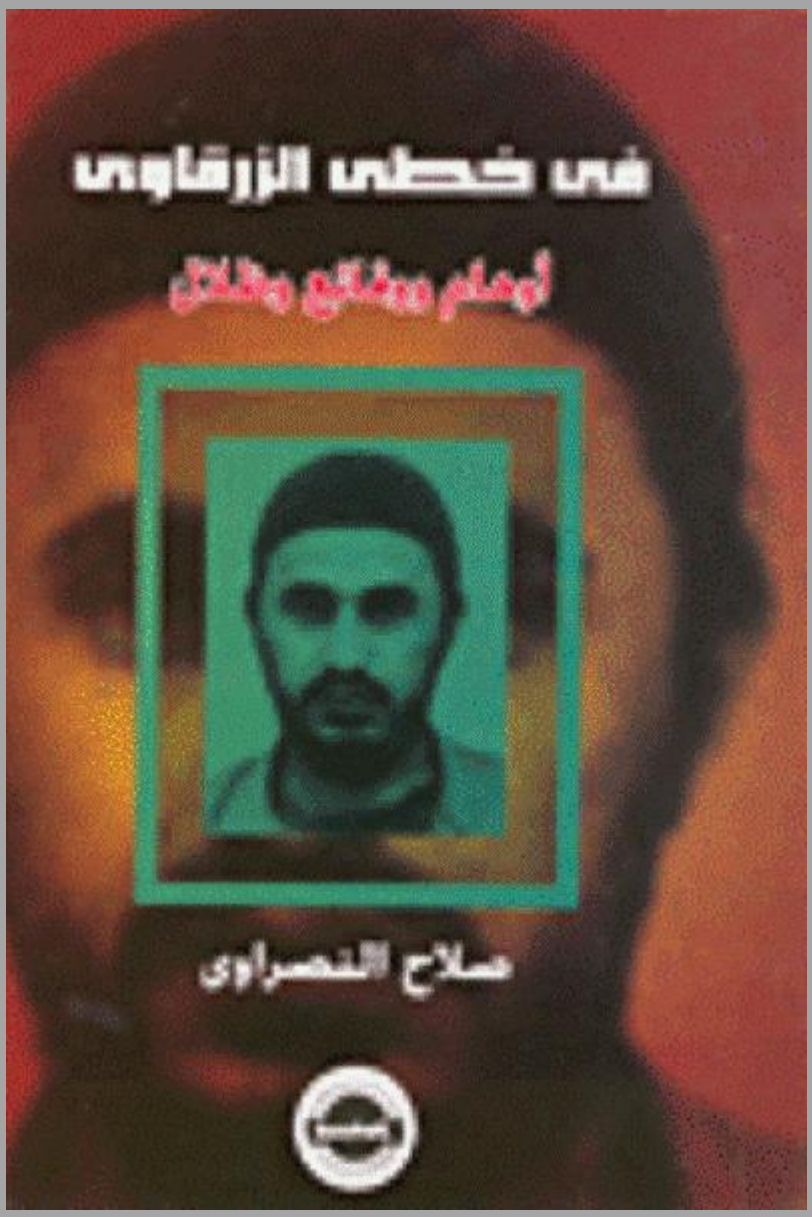
في خطى الزرقاوي
أوهام ومخاتيع وظلاّل
صلاح النصراوي

الزرقاوي

أوهام ووقائع وظلال

صلاح النصراوي

إلى كل عراقي سفك الإرهاب الأعمى دمه

"ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا"

(سورة الإسراء-72)

تنويه

كان من المفترض ان اكتب مقدمة جديدة لهذه النسخة الاليكترونية من الكتاب الذي صدر قبل ستة عشر عاماً لكني أجلت ذلك بعد الأحداث التي جرت في سوريا في شهر كانون الأول/ ديسمبر 2023 والتي أدت الى سقوط نظام بشار الأسد وزحف جماعة الجولاني الى دمشق والى السلطة على أمل ان اتمكن من كتابة كتاب آخر عن هذه المغامرة الجديدة التي كان لديها جذورها في تنظيم القاعدة والجهادين عموما.
احب ان اعتذر أيضاُ لضيق الوقت عن مراجعة هذه النسخة وتدقيقها لغوياً والتي هي المسودة الأصلية للكتاب والتي عثرت عليها بشق الأنفس في بطون ديسكات كومبيوترات قديمة كنت يأست من اخراج الملفات منها.

مقدمة

مرات عديدة، لا حصر لها، سمعت سواء بشكل مباشر، أو غير مباشر، وعبر وسائل الإعلام، من يسأل، أحيانا لهدف الإستفهام، ولكن في معظم الأحيان بشكل إستنكاري، عما اذا كان أبو مصعب الزرقاوي، الاردني الذي يقود تنظيم "القاعدة في بلاد الرافدين"، هو شخصية حقيقية موجودة على أرض الواقع أم أنه مجرد وهم أو خيال أو اسطورة حاكتها الولايات المتحدة الأمريكية لأسباب تتعلق بحربها في العراق.وحتى بعد أن ظل اسمه يتردد ويكاد بشكل يومي عبر أجهزة الإعلام بسبب الأعمال الإرهابية الفظيعة

التي اقترفها هو وتنظيمه والتي أقر بها علنا عبر بيانات ورسائل صوتية للزرقاوي نفسه ظل السؤال عن حقيقة وجود الزرقاوي يتردد وبشكل ملح وربما مبتذل. وكان أكثر ما يثير الدهشة هو ذلك التباين الشديد في خلفيات المشككين الثقافية والاجتماعية والسياسية الذين يكادون يختلفون في كل شيء عدا إتفاقهم على أن الزرقاوي لا يمكن أن يكون غير مؤامرة أمريكية، وهو ليس إلا جزءا من مستلزمات احتلال الولايات المتحدة للعراق وإطالة أمده.

وبحكم عملي الصحفي وطبيعته ومتابعتي اليومية الدقيقة لسنوات طوال التنظيمات الإسلامية المتشددة في المنطقة ومحاولات إلمامي بتاريخها وفكرها ونشاطها المحاط عادة بدرجة عالية من السرية والغموض، وأيضا بحكم الهواجس والظنون التي ينظر فيها الناس في المنطقة الى الولايات المتحدة وسياساتها تجاه قضاياهم وخاصة الحرب التي شنتها على العراق في ربيع عام 2003 كنت أدرك تماما مدى صعوبة أن يتقبل العديدون من أصحاب المواقف المسبقة أو المؤمنون الفطريون بنظريات المؤامرة حقيقة وجود الزرقاوي وتنظيمه ووقوفه خلف العمليات الإرهابية الشنيعة التي ترتكب في العراق. فقد كان هذا الرفض لوجود الزرقاوي وبالتالي لما يقترفه من أعمال،مهما بدا متناقضا في تبريراته،قابلا للفهم لأنه يرتبط بشكل أساسي بالخلفية الفكرية أو الايديولوجية أو

الدينية أو المذهبية لكل من له رأي أو موقف سياسي أو مذهبي تجاه الوضع العراقي ووجهة النظر المتعلقة بكيفية حل المأزق الذي يشكله الإحتلال الأمريكي له.
ما كان يقلقني في هذا الرفض وعدم الإستعداد لتقبل حقيقة وجود الزرقاوي ومسؤوليته عن الأفعال التي يرتكبها في العراق،مثلما أعتقد انه كان يقلق آخرين،وخاصة من العراقيين،هو أن ذلك الموقف السلبي كان يرتقي في حالات كثيرة إلى مستوى التبرير الفظ لتلك الجرائم البشعة التي راح ضحيتها آلاف من الأبرياء العراقيين،لا لشيء سوى إرضاء النزعة السادية للزرقاوي والتي تحركها دوافع تبدو فعلا غامضة. فإنكار وجود الزرقاوي والإصرار على تجاهل جرائهم كان يعني ببساطة قبولاً ومباركة لما يقوم به الزرقاوي ودعماً معنوياً له كما كان يعني تجاهلاً وإستخفافا بدم الضحايا ومكابدات عوائلهم بل وأيضا للمأساة المروعة التي يمر بها العراقيون على يد الزرقاوي وجماعته وهم يحاولون النهوض من رماد الحروب والويلات التي توالت عليهم.وفي الحقيقة كان الإنكار يوفر المظلة التي يعمل تحتها الزرقاوي وجماعته وربما يتجاوز ذلك لكي يصل إلى حد المشاركة الفعلية في ما اقترفه من إثم في حق العراقيين الأبرياء.
لهذا فقد سعيت خلال أكثر من عامين على تكثيف الجهود في متابعة الزرقاوي وأخباره ونشاطاته سواء من خلال أكوام من الكتب والكراسات والتقارير واشرطة التسجيل،

بعضها منشور ومتوفر، سواء في الآسوق أو على مواقع الانترنيت، والآخر محدود اتيحت الفرصة لي للاطلاع عليه من خلال نشطاء إسلاميين ومراكز بحوث ورجال أمن سابقين وحالين على صلة وثيقة بمجريات ونشاطات حركات الإسلام السياسي بمختلف تياراتها المحافظة والمتشددة والارهابية. كما قمت في نفس المسعى بزيارات عديدة لبعض الدول ومنها المناطق التي ينشط فيها في العراق والاردن وسوريا والمملكة العربية السعودية واليمن وتركيا والتقيت بأناس على درجات مختلفة من الصلات العائلية أو الشخصية بالزرقاوي والمتعاطفة معه كما وجلت في المناطق التي نشأ فيها الزرقاوي في الاردن وترعرع ونهل منها أفكاره ومواقفه أو تلك التي ارتبط فيها تنظيمه بمجموعات أو أجهزة والتي انتجت في النهاية هذه الشخصية التي مهما كان الرأي فيها وحولها فقد دخلت التاريخ العربي الحديث إلى جانب الكثيرين ممن سودوا صفحاته ورسموا حاضره ومستقبله بالكثير من الدم والعنف والكراهية.

ادرك الآن أن مهمة الكتابة عن الزرقاوي ليست بالهينة،فالمهم ليس المعلومات المبثوثة عنه هنا وهناك، سواء تلك التي وثقت من خلال الاجهزة الرسمية التي تراقب تحركاته، وقبل ذلك في مراحل التحقيق معه والمحاكمة في المرات التي ألقي القبض عليه فيها في الاردن، أو تلك التي جاءت من صحبه ومعارفه أو البيانات

والنشرات التي اصدرها تنظيمه، بل وضع هذه المعلومات في الأطر والسياقات التي يمكنها في النهاية من تكوين صورة هي أقرب إلى الحقيقة لهذه الشخصية التي ستبقى مهما عمل الباحثون على فك طلاسمها مثار الكثير من الأسئلة كما تظل محفوفة بالعديد من الأسرار والألغاز والشكوك.

ليس هناك ما هو أكيد في مسيرة الزرقاوي منذ نشأته الأولى في مدينته الصحراوية الصغيرة التي استقى منها شهرته سوى وجوده بذاته، أما كل باقي التفاصيل المتعلقة بحياته فهي مدعاة للبحث والاستقصاء والتمحيص. صحيح أن الكثير مما نشر عنه في الصحافة العالمية والعربية أو تناولته المنتديات عبر الانترنيت قد ساهم بدوره في زيادة الألغاز المحيطة به، لكن الأكيد هو أن شخصيات من هذا الطراز دائما ما تحتاج العيش في عوالم من الأسرار والطلاسم التي تضفي غموضا مطلوبا عليها عند العامة كما تضفي الكثير من الطقوس عند مريديهم مثلما تستدعي الفضول عند الباحثين عن الحقيقة.

لقد وجدت خلال بحثي أن هناك معلومات لابأس بها عن الزرقاوي منذ ولادته وحتى مغامرته العراقية وهي معلومات بإمكانها أن توفر لأي باحث امكانية تكوين صورة عامة عن سيرة متشدد إسلامي شبيهه بتلك التي نعرفها عن الآلاف من امثاله من الذين انخرطوا في هذا النوع من النشاط المتطرف في العديد من البلدان العربية

والإسلامية منذ بروز الظاهرة في أواسط السبعينات في مصر ومن ثم إتساعها في مرحلة ما بعد الجهاد الافغاني.ولكن الذي يثير الإهتمام حقا هو أن سيرته المتواضعة هذه بالذات والتي سأستعرضها في الصفحات اللاحقة هي التي تثير الشكوك حيث يسهل الإستنتاج من تفاصيلها بانها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن توفر له من القدرات الفكرية والسياسية والعسكرية لكي يحتل هذا الموقع البارز في صفوف حركات التشدد الإسلامي وتياراتها الحركية التي ضمت منظرين وكوادر ونشطاء أطول باعا منه والذي جعله يناطح أكبر قوة عسكرية وسياسية في العالم وفي واحدة من أحرج الأماكن والتوقيتات في مسيرة كينونتها الإمبراطورية.
إضافة إلى ذلك وكما هي الحال مع الشخصيات المثيرة للجدل والتي يلف سيرتها الكثير من الغموض وتحف بها الظنون فان وجود فجوات غير مفهومة وعصية على التفسير في رحلة الزرقاوي من الزرقاء إلى العراق تثير بدورها الكثير من الأسئلة بل ومن الشكوك في مسيرته وخاصة بالمحطات التي حط فيها رحاله وهو يصل إلى ما وصل اليه ويكتسب هذه الشهرة العالمية. غير أن هذه المناطق غير المكتشفة من سيرة الزرقاوي ومن علاقاته وإتصالاته وإرتباطاته ونشاطاته لا تضعف من فهم حقيقة الدور الذي يقوم به في مرحلة من أهم المراحل التي يمر بها العراق وتمر بها المنطقة العربية والعالم الإسلامي،

فالظلام كما يقول الفيلسوف الكبير بليز باسكال لا يضعف الحقيقة بل يزيدها ألقا.
من البديهي أن يكون أول سؤال يطرح هو كيف استطاع شخص قليل الحظ من التعليم والتجربة قضى صباه وشبابه في مراهقات وجنوح العالم السفلي أن يشق طريقا آخر في عالم التدين المتشدد ويصبح زعيما لأحد أبرز الجماعات المتطرفة التي شهدها العالم الإسلامي في العقود الأخيرة بل وأن يطرح نفسه لقيادة هذا العالم وتغيره. بإمكان أنصاره ومريديه أن يبرروا ذلك بمفهوم الهداية ويضربوا أمثالا عن شخصيات في التاريخ مرت بنفس التجربة غير أن القراءة المتأنية لمجمل سيرة الزرقاوي تدل على أن وراءها صناعة متقنة تثير الدهشة في ما وصلت اليه من براعة في انتاج هذه الشخصيه ومنحها الهالة اللازمة والقدرة على صنع هذه الاحداث.
واذا كانت ظروف الاردن والسياسات التي اتبعها نظامه في تشجيع المد الإسلامي في سبعينيات القرن الماضي لأسباب عديدة قد شكلت الحاضنة التي نما فيها الزرقاوي وترعرع فان هناك في المحطات التي مر بها الزرقاوي بعد ذلك بدءا من رحلته الافغانية الاولى عام 1989 ما لا يجب إهماله على أساس انه من الصدف العابرة بل هو جدير بالتمعن وخاصة فترة سجنه الاخيرة في الاردن بين عامي 1993 و 1999 والظروف التي هيئت له داخل السجن لانتزاع زعامة مجموعات من التيارات المتشددة

التي كانت معه من "ابو محمد المقدسي" أحد أكبر منظري التيار الجهادي السلفي وتثبيتها بيديه ومن ثم إطلاق سراحه بعفو ملكي والسماح له بالعودة إلى افغانستان في ذات الوقت الذي كان نفوذ "أسامة بن لادن" وتنظيمه "القاعدة" يشهد تصاعدا بعد التفجيرات ضد السفارات الأمريكية في كينيا وتنزانيا.

في طريق العودة إلى افغانستان هناك محطة صغيرة في الباكستان حيث اعتقل لفترة أيام معدودة لم ينشر الكثير عنها،الا أنها تثير شهية كل من تابع رحلة الزرقاوي المثيرة عما جرى خلالها في ضوء معلومات شبه مؤكدة عن اتصالات بين أجهزة مخابراتية عديدة مع المخابرات الباكستانية ذات النفوذ الكبير يومها في افغانستان والتي أمنت اطلاقه وإيصاله إلى قندهار بدلا من إعادته إلى الاردن.ما حصل في المحطة الافغانية بعد ذلك وخاصة إتخاذ الزرقاوي معسكرا له في منطقة "هيرات" الشيعية المجاورة لايران هو بحد ذاته من الألغاز الكبيرة الذي لا يقل أهمية عن الإنتقال إلى ايران بعد الحرب التي شنتها الولايات المتحدة على نظام طالبان إثر هجمات 11 أيلول / سبتمبر 2001 وقضائه فترة في ضيافة الإستخبارات الايرانية.ولعل المحطة الأبرز في هذه السيرة الشائكة هي إنتقال الزرقاوي بعد ذلك إلى العراق في ظل نظام صدام حسين وتنقله بين العراق وسوريا البلدين اللذين تتحكم فيهما الأجهزة الامنية والمخابراتية بما لا يسمح،كما

يقال،لطير أن يطير في سمائهما دون علميها.ما نتج عن هذه الرحلة هو ذلك التحالف الغريب والأكثر مدعاة للدهشة بين سلفي تكفيري اردني وشيعة ايران وبعثيي العراق وسوريا والذي أصبح الأساس الذي قام عليه الجهاد الذي أعلنه في العراق والذي خلط أوراقا كثيرة في المنطقة بعدما حول العراق إلى ميدان الإرهاب والحرب ضد الإرهاب،وهو الأسم الآخر للصراع العالمي الجديد.
الشيء الآخر المهم في مسيرة الزرقاوي هو مدى ارتباطه باسامة بن لادن وبتنظيم "القاعدة" اذ مهما قيل عن ذلك، وحتى الغزل الذي دار بين الرجلين حين أعلن الأول وبعد سنين طويلة في الرسالة التي نشرت في 17 تشرين الثاني /نوفمبر 2004 ولاءه لبن لادن وإنضمام تنظيمه إلى القاعدة ومباركة الأخير ذلك فان هناك الكثير من علامات الإستفهام تبرز حول العلاقة الحقيقية بين الرجلين ومدى تطابق أو إنسجام الإستراتيجية والتكتيكات التي يستخدمها كل منهما مع تلك التي يلجأ اليها الآخر.فالاجابة على هذا السؤال تكشف إلى أي مدى ينسق الأثنان مجهودهما أو يكمل آحدهما الآخر وهو الأمر الذي اذا ما توفر بإمكانه أن يلقي الكثير من الضوء على الشراكة بين الرجلين أو بالعكس التنافس بينهما في المشروع الجهادي الذي تفترض إستراتيجية مكافحة الإرهاب الأمريكية انهما وجهان لتنظيم "القاعدة."

لقد تناول كثيرون بالبحث والدراسة تاريخ الجهاد الأفغاني، وكشفوا في كتابات قيمة الصراعات التي دارت في صفوف الجماعات المنضوية داخله، ومنها المجاهدون العرب لأسباب عديدة، منها ما هو فكري وسياسي،ومنها ما يتعلق بالخلفيات الوطنية لتلك الجماعات.كما تناول الكثيرون أيضاً وخاصة في الغرب الحلقات الوثيقة التي ربطت بين ذلك الجهاد وقادته وتنظيماته وبين سياسات دولية وإقليمية وأجهزة أمنية ومخابراتية غربية وعربية وإسلامية وأستنتجوا أن ذلك كان تحالفاً أملته ظروف الحرب الباردة والكفاح ضد الشيوعية إضافة إلى التحالفات المحلية والإقليمية والدولية التي استوجبتها المرحلة. ولعل أفضل وصف لذلك التحالف هو ما سطره الصحفي والكاتب الامريكي "جون كولي" في كتابه "حروب غير مقدسة" من أنه علاقة حب غريبة انتهت إلى كارثة مروعة.اذ مهما كانت دوافع ومبررات ذلك التحالف غير المقدس فقد بذر بالنتيجة النهائية بذور ما يحصده العالم الآن من العنف والإرهاب والكراهية وبضمن ذلك الهجمات الإرهابية التي ضربت أمريكا في 11 أيلول / سبتمبر 2001 والذي أصبح اليوم الذي يؤرخ لمرحلة جديدة في تاريخ العالم. واذا كان ثمة ألغاز في حياة الزرقاوي ومسيرته فمن المؤكد انها تكمن هنا،أي في تحالفات الشر الشيطانية التي نسجت حوله وكأن التاريخ يعيد نفسه في العراق بعد أفغانستان.

(1)

المرة الاولى التي سمع فيها العالم اسم أبو مصعب الزرقاوي كانت يوم 5 فبراير /شباط 2003 وهو اليوم الذي أدلى فيه وزير الخارجية الامريكي السابق "كولن باول" بمطالعته الشهيرة أمام مجلس الأمن الدولي لإقناع المجتمع الدولي بالإنضمام للتحالف في الحرب التي ستشنها إدارة الرئيس "جورج بوش" بعد ستة أسابيع من ذلك التاريخ بهدفين معلنين؛ وهما تخليص العالم من أسلحة الدمار الشامل التي ظلت هذه الإدراة تصر على إمتلاك نظام صدام حسين لها وتفكيك علاقات صدام مع قوى الإرهاب العالمي ومنها حركة أسامة بن لادن.كان الهدف

الحقيقي بطبيعة الحال إزاحة صدام حسين عن السلطة في العراق ولم يكن حينها يعني الكثير أي من الاسباب هي التي ستستخدم في تحقيق الهدف أو الادلة التي يمكن أن تقدمها الإدارة الأمريكية لإثبات كل ذلك. وبالنسبة للتبريرات المتعلقة بالإرهاب الدولي الذي أعلنت الولايات المتحدة حربا كونية إستباقية عليه بعد احداث 11 أيلول /سبتمبر/ 2001 فان الرأي العام الأمريكي وربما غالبية الرأي العام الدولي كان على استعداد فطري أن يتقبل كل ما يقال له عن أسامة بن لادن ورهطه الذين لم يؤلوا بدورهم جهدا لإثبات عدائهم وكراهيتهم للعالم بل واستعدادهم لتدميره.لذلك فبينما بدا معظم ما قاله باول خلال أكثر من ساعة ونصف من المطالعة التي شاهدها العالم كله على شاشات التلفزيون، ومن ضمن ذلك العلاقة بين نظام صدام وبن لادن والزرقاوي، أقرب الى الفانتازيا الخيالية الضرورية لشيطنة صدام وتهيئة العالم للقبول بمبررات الحرب التي كانت وشيكة الا أن الزرقاوي نفسه كان مع الأسف الشديد شيئا حقيقياً

البعض الذين سمعوا عن الزرقاوي منذ محاكمته في الأردن عام 1994 لم يكونوا يعرفون أيضاً عنه أكثر مما خرجت به أجهزة الإعلام من كونه جزءا من تنظيم إسلامي متطرف كان يقوده "عصام البرقاوي" أو "أبو محمد المقدسي" المعروف في عالم الإسلاميين بتطرف افكاره السلفية الجهادية والمتهم بالتخطيط للقيام بعمليات

إرهابية في الاردن.وكما هو الحال مع المنظمات والاشخاص الذين يقبعون في كهوف العالم السري وفي أجواء الغموض التي تحيط بها فإن الناس تسمع الكثير من الروايات عن هؤلاء ومع ذلك فانهم يعرفون القليل جدا عن حقيقتهم مما يدعوهم إلى نسج الكثير من القصص التي يرتبط فيها الخيال بالواقع.وفي الوقت الذي يميل مريديهم إلى المبالغة في ترديد الاساطير عن هؤلاء "المجاهدين" مثل الزرقاوي ففي المقابل هناك الكثير من الناس كما اشرنا من يرفض حتى الإقرار بوجود الزرقاوي ويجنح بهم الخيال بعيدا حتى إنهم يقسمون أغلظ الايمان بانه شخص لا وجود له خلقته دعاية أمريكية محضة تستخدمها واشنطن كفزاعة لأهداف لعل على قمتها يأتي إستمرار إحتلالها للعراق.

فبالنسبة لانصاره ومحبيه الذين تمتلىء بمدائحم له مواقع الانترنيت التي تديرها الجماعات السلفية الجهادية فهو "الشيخ أبو مصعب الزرقاوي" "أمير "تنظيم الجهاد في بلاد الرافدين" والبعض منهم يذهب به الإعجاب حتى ينزله منزلة شيخ المجاهدين الذي يعيد باعماله غرس شجرة الإسلام في العراق ومعيد بناء الخلافة الإسلامية فيه!أما على أرض الواقع العراقي فإن ما يجعل الزرقاوي مالىء الدنيا وشاغل الناس هو تلك التفجيرات والهجمات الإرهابية التي حصدت لحد الان آلافا من أرواح العراقيين الأبرياء والتي تنتج شلال الدم المتدفق في شوارع المدن

العراقية والتي حالما تبدأ شاشات التلفزيون العالمية بعرض وقائعها حتى يخرج الزرقاوي وجماعته ببيانات على مواقع الانترنيت التي يديرها محبوه أو من خلال فلم فديو يجري تسريبه إلى احدى القنوات التفزيونية يدعي فيها شرف قيامه بالعملية الجهادية والبطولية التي خلفت وراءها المئات من القتلى المسلمين العراقيين في معظم الاحوال.
من الصعب علينا جميعا الان إن نحل لغز هذا الزرقاوي.ولعل المستقبل وحده كفيل بأن يكشف أسرارا ويزيح استارا عن كيف أن صبيا ترعرع في حي بائس في مدينة اردنية تقبع على تخوم الصحراء وهجر مدرسته في وقت مبكر من حياته بسبب العوز ثم امضى معظم وقته بعدئذ في جبانة المدينة الناشئة حديثا والمكتظة احياؤها بعشائر بدوية تطرق لأول مرة حياة الحضر وتعيش وسط لاجئين ونازحين فلسطينيين يتقبلون بعضهم البعض بتوجس وعلى مضض وصل إلى ما وصل اليه من المكانة في عالم الارهاب الدولي إلى جانب أسماء مثل أسامة بن لادن وأيمن الظواهري وكيف أن هذا الشخص الذي عاش سنوات شبابه حياة ماجنة يشوبها الكثير من الممارسات التي تبتعد عن الإسلام وتعاليمه وقيمه ما لبث ان تحول بأتجاه مغاير تماما حين أغرته جماعات إسلامية متطرفة لكي ينتمي اليها ثم ما لبث أن أصبح أحد قادتها ولكي يتحول بعد فترة على مستوى الفعل والتنظير إلى أحد أبرز وجوه التطرف والعنف التي انتجتها التيارات الإسلامية

الراديكالية منذ أن بدأت نشاطها في سبعينيات القرن الماضي.
دفعتني غريزتي الصحفية واهتمامي المهني إلى البحث عن "أحمد فضيل نزال الخلايلة" الذي عرف لاحقا بالزرقاوي منذ أول مرة ظهر فيها اسمه مرتبطا بالعراق علني أجد أجوبة حقيقية عن سيرته التي برزت لأول مرة عام 1994 حين تم الحكم عليه بقضية إرهاب شهيرة في الاردن تدعى قضية جماعة "بيعة الامام" قبل أن يطلق سراحه عام 1999 بمرسوم عفو عام اصدره "الملك عبد الله الثاني" بعد توليه العرش ويسافر بعدها إلى افغانستان حيث التحق ببقايا المجاهدين العرب الذين اشتركوا في القتال مع حركة طالبان في الحرب التي شنتها الولايات المتحدة عام 2001 ثم ظهوره الغامض على الساحة العراقية قبل الحرب بقليل.تجمعت لدي خلال السنوات الماضية العشرات من الكتب والكراسات وأكداس من الاوراق والتي تروي كلها قصصا وحكايات عن الزرقاوي الا أنها جميعا عجزت عن أن تفك تلك الطلاسم المحيطة به وببروزه المفاجيء على الساحة العراقية حتى قبل أن يسقط صدام في الحرب الأمريكية التي شنت على نظامه.
في زيارة للعراق في ربيع عام 2004 رحت أجول قريبا جدا من مخبأ الزرقاوي في "الفلوجة" و"الخالدية" و"الرمادي" التي كانت معاقلا لأتباعه ومناصريه قبل الهجمات الأمريكية على المنطقة في تشرين الثاني /نوفمبر

التي أجبرتهم على الإنتشار في باقي مناطق ما يعرف بالمثلث السني غير أن الوصول اليه ظل أصعب من المستحيل.فلم يكن بدا من الاكتفاء بما ينقله عنه "مجاهدوه" العراقيون والذين تكشف لي سريعا أن لا أحد منهم قد شاهده بأم عينيه أو حتى أن اقترب منه،كما انهم لا يعرفون عنه وعن ماضيه شيئا الا كونه الامير الذي يقود "المجاهدين" والذين تجب عليهم طاعته دون سؤال.وعندما تلح في الاستفسار عن الألغاز التي تكتنف شخصية الزرقاوي ومهمته في العراق فإن الجواب يأتيك دوما جاهزا انها ظروف الجهاد والدعوة!! ما يعوض عن معرفة مريديه العراقيين به تلك الأساطير التي تغزلها مواقع الانترنيت عنه والتي تجد صداها في اصوات التفجيرات الانتحارية التي يقوم بها متطوعون عرب كل يوم وتخلف وراءها قتلى وجرحى ويتامى وثكلى وأرامل اضافة إلى عمليات النحر التي اصبحت سمة اساسية في جهاد الزرقاويين والتي تؤدي مفعولها أيضا في الترهيب والتخريب.أما الناس العاديون الذين طالما سمعناهم على شاشات التلفزيون يشككون بوجود الزرقاوي ويصورنه بانه مجرد دعاية أمريكية فأنهم لم يزيدو اللغز إلا غموضا.
ادرك بخبرتي الصحفية أن من الصعوبة تقفي آثار من يعيش في دهاليز العالم الخفي ويتلفع بالظلام فالجحور التي تضمهم هي وحدها التي تمنحهم الحماية المطلوبة مثلما تعينهم على مقاومة الأنوار الكاشفة للألغاز التي ينسجونها

حول شخصياتهم.لكن هناك دائما طرق ووسائل بامكانها أن تعين على فك تلك الألغاز مهما أحاطها أصحابها بالأسوار.ومن تجربتي الصحفية خلال السنوات التي تابعت فيها نشاطات الحركات الإسلامية السرية ادركت دائما أن الخطوة الأولى لفهم اولئك الاشخاص المنتمين لها تبدأ بمعرفة الأماكن التي ولدوا فيها وترعرعوا وعاشوا ومارسوا مغامراتهم الاولى فتلك الأمكنة هي البيئة التي احتضنتهم ولابد انها ساهمت بشكل ما أيضا في تشكيل وعيهم الاولي وفي صياغة شخصياتهم.

فالآن بآمكاني أن أزعم بان لدي فهم عن ابن لادن أفضل من تلك التي زودتني بها متابعاتي وقراءاتي عنه بعد أن جلت مرات عديدة في الاماكن التي عاش فيها في أحياء الرياض ومكة وجدة وفي شوارع حي العمارات في الخرطوم وفي الدمازين وكلمت الناس العاديين فيها ممن عرفوه أو درسوا معه أو صلوا إلى جانبه في المساجد.شوارع "المعادي" وقاعات وحدائق كلية طب القاهرة وفندق "الكونتيننتال" في "ميدان الاوبرا" الذي احتفل فيه بزواجه كانت أيضا الأماكن التي توحي بالكثير عن حياة وسيرة أيمن الظواهري وكيفية تحول الطبيب ابن الطبقة المتوسطة المصرية المترفة إلى واحد من أبرز قادة الإرهاب الدولي.كما فهمت "زين العابدين المحضار" زعيم الجهاد اليمني بشكل أعمق بعد أن زرت حصونه في جبال "جعار" وقبل ذلك مرتع صباه في "ابين" في جنوب

اليمن.وهو نفس ما توصلت اليه في فهم افضل لما يقوم به تنظيم "القاعدة في جزيرة العرب" عندما زرت "بريدة" المعقل الأبرز للسلفية الجهادية في السعودية وعندما تجولت اياما في حي "الملز" في الرياض قبل أن اشاهد مصرع زعيم التنظيم "عبد العزيز المقرن" على يد الشرطة السعودية في معقله الذي مارس فيه قطع الرؤوس.أحياء الصفيح في "الاحراش" و"عين الدفلة" و"بومرداس" منحتني صورة أوضح عن الأجواء التي نشأت فيها الحركات الإسلامية في الجزائر والبيئات التي تحتضنها.أنه المكان الذي يمنح ذلك الاحساس الضروري الذي بدونه يصبح إدراك ووعي الكثير من الحقائق ناقصا.لذلك قررت أن ازور الزرقاء تلك المدينة الاردنية التي ادخلها ابنها الأبرز التاريخ من باب الإرهاب الأوسع لعل المكان الذي ولد وترعرع فيه يجيب عن الكثير من الأسئلة المحيرة ويحل بعض الأحاجي والألغاز التي تحيط به.

(2)

تطل الزرقاء، او الزركا كما ينطقها الاردنيون بتفخيم الكاف،على الصحراء الممتدة شرق عمان على محور الطريق الدولية التي تربط العاصمة الاردنية بالحدود السورية والسعودية والعراقية.والزرقاء مدينة تمتد أحياؤها السكنية المتواضعة ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين فيها فوق الروابي والتلال الجرداء والتي تربط بينها شوارع وأزقة ضيقة مكتظة بالمحلات والدكاكين والورش وعربات البائعة الجائلين فتحولها إلى سوق واسعة ممتدة على طول تلك الشوارع التي يرتادها رجال ونساء وصبية

لا يمكن أن تخطيء عين الناظر مظهرهم المحافظ من أول وهلة تقع عليها.
الزرقاء هي مركز محافظة الزرقاء والتي تشمل مدن وتجمعات سكنية وصناعية وهي ثاني أكبر مدينة اردنية بعد عمان والتي تبعد عنها بحوالي 23 كيلومترا فقط وتبلغ مساحتها حوالي 60 كليوا مترا مربعا ويسكنها ربما 900,000 شخص من الاردنيين ومن اللاجئين الفلسطينيين يضاف اليهم ربما حوالي 100 الف عراقي بعضهم يسكن المدينة منذ سنوات ويعمل أغلبهم في مختلف الحرف والوظائف في عمان ولكنهم يقيمون فيها بسبب تدني مستويات ايجارات المساكن اضافة إلى عمال مهاجرين من مصر وسوريا واليمن والباكستان وبنغلاديش.وبسبب كونها مدينة صناعية تضم حوالي 50 بالمائة من المصانع الاردنية فإنها مركز جذب دائم للسكان وخاصة من الباحثين عن فرص عمل.
تأسس أول مجلس بلدي في الزرقاء عام 1928 بعد إنشاء إمارة شرقي الاردن إلا أنها توسعت بشكل مضطرد ثم مالبثت أن تحولت إلى مدينة صغيرة بجانب معسكر للجيش الاردني الوليد تقيم فيها أسر الجنود وبعد ذلك إلى مدينة صناعية تضم اضافة إلى مصانع خاصة صغيرة مصفاة للنفط ومصنعا للفوسفات ومعملا للورق ومصانع للخمور ومقالع حجرية تنتشر على حافات المدينة والتي اجتذبت عبر السنين أعدادا هائلة من العمالة الرخيصة في البداية

من الشيشانيين والقوقازيين الهاربين من هيمنة روسيا القيصرية أولا ثم الشيوعية وبعد ذلك من اللاجئين الفلسطينيين الذين يشكلون حوالي 80 بالمائة من سكان المدينة والذين نزحوا اليها من الضفة الغربية إثر حربي عام 1948 وعام 1967 فجاوروا العشائر الاردنية البدوية المرتحلة من عمق الصحراء المجاورة.كل ذلك اتاح للزرقاء أن تتوسع توسعا ارتجاليا في شتى الاتجاهات تداخلت فيها المخيمات بالاحياء السكنية بالمصانع وبالورش والاسواق مما جعلها مجرد عشوائية كبيرة تعكس بيئة اجتماعية شديدة القلق والارتجال وحاضنة لفرص التوتر والفوضى.

خلال عقدي الخمسينيات والستينيات شهدت الزرقاء نشاطا واسعا لحركة الاخوان المسلمين الاردنية حيث تحولت المدينة إلى بؤرة نشاط واسعة للعديد من قياديها وشيوخها البارزين وغيرهم من المشايخ الذين امتاز خطابهم بكل ما هو تقليدي وبما يتماشى مع نهج الاخوان المسلمين المهادن للسلطة الاردنية حتى أن الكثيرين من مؤرخي تلك الحقبة اشاروا الى تحالف الاخوان مع الملك حسين في معاركه التي خاضها آنذاك وخاصة ضد النظام البعثي في سوريا وضد حركات التحرر الوطني الفلسطيني بمختلف اجنحتها والتي كانت تضع أول خطواتها على طريق النضال المسلح بعيد حرب 1967 وقبيل خروج منظمة التحرير الفلسطينية النهائي من الاردن إثر معارك أيلول الاسود

عام 1970.وكنتيجة لذلك شهدت المدن الاردنية ومنها الزرقاء نشاطا واسعا للاخوان المسلمين تجاوز المساجد والجمعيات الخيرية التي عادة ما تلجأ اليها الحركة للتعبئة الجماهيرية السياسية إلى فتح مقرات للحركة وتشجيع مشاركتها في إدارة البلديات والمجالس المحلية ثم فتح الباب أمامها للانضمام إلى المجالس النيابية.

تأسست جماعة الاخوان المسلمين في الاردن عام 1945،أي بعد 17 عاما من تأسيس "جماعة الاخوان المسلمين" في مصر وسمح النظام الهاشمي للاخوان المسلمين بممارسة نشاطاتهم بشكل علني حيث افتتح المركز العام للجماعة في 9 تشرين ثاني/ نوفمبر1945 تحت رعاية الملك عبدالله الأول،وظلوا منذ ذلك الوقت تجمعا مرخصا لهم فروع في كل مناطق الاردن وشاركوا في كل الانتخابات البرلمانية بإستثناء مرة واحدة كما سمح لهم بتاسيس "حزب العمل الإسلامي" كواجهة سياسية له.وعلى الرغم من إحتفاظ الاخوان المسلمين في الاردن بخطابهم التقليدي الا أن الكثير من المحللين يرون أن التحالف أو المهادنة بينهم وبين النظام الهاشمي هيأت البيئة التي نشأ فيها الإسلام التكفيري في الاردن مثلما كان الأمر في مصر الساداتية وباكستان تحت حكم الجنرال ضياء الحق.

الا أن أكثر من ترك بصماته على ناشطي الزرقاء الإسلاميين هم الشيخ السوري "ناصر الدين الالباني" الذي

كان يرتاد المدينة لإلقاء محاضراته الفقهية النارية في مساجدها حيث كان يلهب مشاعر وعقول شبابها بافكاره السفلية التي بناها على اجتهاداته في القطع مع المذاهب الاسلامية المعروفة.حقا أن الالباني الذي استقر في الاردن بعد ان هجر سوريا لما تعرض فيها للاضطهاد والسجن على يد نظام حزب البعث لم يكن من دعاة التكفير والتطرف غير أن دوره ينبع من الاجواء التي اثارها نشاطه في الاردن والتي أشاعت الفكر السلفي فيه.ولم يلبث أن ظهر في الاردن الشيخ الفلسطيني "عبد الله عزام"،الداعية والناشط في صفوف التيار القطبي (نسبة الى سيد قطب) المتشدد من الاخوان المسلمين والذي مارس هو بدوره نفوذا هائلا على الحركة الإسلامية بل حول معظم شبابها من التيار الاصولي التقليدي الذي تعبر عنه حركة الاخوان إلى تيار السلفية الجهادية.كان عزام بسبب خلفيته الفلسطينية وجذوره الاخوانية وميوله المتطرفة وسماته القيادية من أكثر الشخصيات الإسلامية التي تركت بصماتها على الجيل الجديد من الاسلاميين الاردنيين بدفعهم نحو التطرف فكرا وممارسة.والواقع أن الأفكار التي بثها عزام وسط شبيبة المدن الاردنية التي كان يخطب في مساجدها ومنها الزقاء هي التي شكلت فيما بعد الشرارة الأولى التي قدحت فيهم روح الجهاد والغلو وهيأتهم للانخراط في التيارات والتنظيمات المتطرفة

ومنها انتشروا في افغانستان والشيشان والبوسنة ثم العراق.
في أواسط الثمانينات شهدت الزرقاء ولادة تيارات إسلامية راديكالية بعد ان ازدهرت البيئة الاصولية التي شكلت حاضنتها في العقدين السابقين.كانت السبعينيات قد مرت على المدينة بهدوء بعد الصعوبات والتوترات التي خلفتها احداث ايلول الاسود عام 1970 والصدامات بين الجيش الاردني والفلسطينيين والتي لم تنج منها المدينة ذاتها التي تحتضن على اطرافها معسكرات للجيش والشرطة ووحدات قوات البادية شديدة الاخلاص والولاء للنظام الهاشمي.الا أن تأثير هزيمة حزيران / يونيو وضرب المقاومة الفلسطينية خلق اجواءُ من الاحباط واليأس والشعور بان مرد كل ذلك هو الانظمة العربية التي عجزت عن الدفاع عن الارض والمقدسات والكرامة بل وتواطأت أيضا مع العدو مما اسرع في بزوغ نبتة التمرد المتمثلة في التيارات الإسلامية المتطرفة التي كانت قد أوجدت تربتها اصلا هناك قبل ذلك بسنوات.
ويعود الفضل في نمو واسع لهذا التيار في الزرقاء والتي حولها منذ اوائل التسعينات إلى بؤرة حقيقية للسلفية الجهادية إلى عدد من الناشطين الإسلاميين المتشددين من أنصار هذه المدرسة الذين عادوا من الكويت إلى الاردن بعد الغزو العراقي لها عام 1990 ومن ابرزهم "عصام محمد البرقاوي" الذي عرف فيما بعد ب"أبي محمد

المقدسي" القادم من افغانستان والذي سيصبح فيما بعد الزعيم الروحي لتنظيم "بيعة الامام" وايضا "أبو انس الشامي" الذي سيصبح لاحقا مفتي تنظيم الزرقاوي في العراق قبل مقتله على يد القوات الامريكية عام 2004.اضاف العائدون من الكويت الى الزرقاء رافدا اخر لبؤر التطرف التي كانت تزخر بها المدينة التي تعاني اساسا من بيئة الجريمة العادية حيث مدوا شبكات السلفية الجهادية وتنظيماتها العسكرية في الأردن بعناصر جديدة كانت مشحونة عاطفيا بالاجواء المعادية للغرب وللولايات المتحدة الأمريكية وللسعوديين ودول الخليج بسبب أزمة احتلال صدام للكويت التي افقدتهم باب الرزق ورمت بهم مرة ثانية في أحضان المخيمات وأحياء الصفيح.كان موقف الملك حسين والقيادة الفلسطينية من هذه الأزمة الداعم لصدام قد هيأ الأرضية المناسبة لنمو هذه التيارات التي صعدت من نشاطها الدعوي والحركي اثناء حرب الخليج الثانية وحالة الاحباط التي اثارتها في جماعات هي محبطة اصلا بسبب الانعاكسات السلبية عليها الناتجة من إحتلال الكويت والحرب.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الزرقاء بمساجدها الكثيرة التي هيمنت عليها مختلف التيارات السلفية بؤرة تفريخ للعناصر الإسلامية المتشددة والتي سرعان ما شكلت تنظيمات سرية متطرفة أكثرها شهرة تنظيم "بيعة الامام" وهو تنظيم يحمل مشروع المقدسي الفكري الذي يستند إلى مفاهيم

قطبية كالحاكمية والطاغوت والجاهلية اضافة إلى تكفير النظم العربية الحالية وما يرتبط بها ويحميها من جيوش وأجهزة أمنية.
واليوم فان اكثر التنظيمات قوةٌ وتاثيرا في الزرقاء هو تنظيم "الموحدون" الذي يعتبره البعض امتدادا لتنظيم "بيعة الامام" بينما يعتبره خبراء أمنيون دوليين الغطاء التنظيمي في الاردن لتنظيم القاعدة والذي يضم عناصر من الأردنيين الذين شاركوا في الجهاد الأفغاني أو سافروا إلى أفغانستان والعراق أو مناطق أخرى من مناطق الجهاد.واستنادا الى تقارير مخابراتية نشرتها الصحافة الدولية فان من بين اشهر الناشطين او قادة هذا التنظيم الذي يعتقد بان له امتدادات وصلات خارجية صهر أبو مصعب الزرقاوي المكنى " أبو قدامة " وجراح الرحاحلة.
عندما زرت الزرقاء في يناير /كانون الثاني 2005 بدت لي الكثير من ازقتها وشوارعها في كثير من مظاهرها أقرب إلى قندهار الافغانية منها إلى عمان عاصمة الاردن.فهي ربما المدينة العربية الوحيدة التي تكاد ترى في شوارعها عددا كبيرا من الرجال والشباب الذين يرتدون الزي الافغاني كاملا من السروال والقميص الطويل المسدل ثم جاكيت من غير اكمام الذي يرتدونه فوق القميص وبعد ذلك غطاء الرأس المدور الاشبه بالبيريه الذي يرتدونه على رأس حليق غالبا وفوق لحية طويلة لكنها معتنى بها بشكل واضح.أعداد الرجال

الملتحين في المدينة يفوق الآخرين الحليقين والعديد من بينهم يعتني بلحية طويلة مشذبة ويرتدي اللباس العربي التقليدي مع الكوفية الحمراء والعقال بينما تغلب على النساء ارتدائهن الحجاب مع لباس طويل مع انتشار واضح للنساء المنقبات.وفي الوقت الذي تكثر فيه المساجد التي تعلو منائرها فوق التلال والبعض منها واسعة وتدل على بذخ في البناء والتجهيز اضافة الى محلات أو اكشاك بيع الكتب الدينية والاشرطة التي تنطلق منها مكبرات الصوت التي تذيع القرآن الكريم أو خطب شيوخ مشهورين فان المدينة تخلو من اماكن اللهو البريء ناهيك عن البارات أو النوادي الليلية سوى مقاهي صغيرة وقليلة مما يعكس الطابع شديد المحافظة إن لم يكن التزمت للزرقاء.

في الزرقاء هناك حضور طاغ لجماعة الاخوان المسلمين وخاصة لحزبهم "جبهة العمل الإسلامي" الذي يمتلك عدة مكاتب في المدينة كما يهيمن قادته المحليون على مجلسها البلدي في الوقت الذي يدير فيه الجماعة عدد كبير من مؤسسات الخدمات الاجتماعية كالمدارس والمستوصفات ودور الرعايا الاخرى.وكما هو الشأن دائما مع الحركيين الاسلاميين فانهم يهيمنون على معظم مساجد الزرقاء التي حولوها الى منابر لنشر افكارهم وساحة للتعبئة والحشد.اما التيارات الإسلامية المتطرفة فإنها تمارس عملها بشكل اقرب إلى السرية على الرغم من ظهورها الطاغي في مجمل حياة المدينة والذي تدركه سلطات الأمن التي تتواجد

عناصرها بكثافة فيها سواء بشكل علني أو سري.لا يتورع هؤلاء الملتحون ذوو الملابس الافغانية عن الكلام بصراحة عن توجهاتهم المتطرفة حالما يدركون أن من يحدثهم ليس اردنيا ولا يثير شكوكهم فيسرفون في تفسير مواقفهم المتشددة كما يتحدثون بإعجاب عن اخوانهم الذين يخوضون الجهاد في العراق مرددين بزهو وتفاخر أسماء من مات منهم في عمليات انتحارية نفذوها هناك أو يذكرون بأسى من هو مسجون منهم في غوانتانامو وافغانستان أو الذين يقبعون في السجون الاردنية.

هناك جانب آخر يمكن ملاحظته بسهولة في الزرقاء وهو العلاقة الوثيقة بين نمو واتساع الحركات الإسلامية المتشددة والقيم والعادات القبلية والتي ربما تعود إلى التوافق بين الاتجاهات المحافظة والتقليدية في كلا الجماعتين وهو ما يهيء التربة المناسبة لنمو الإتجاهات المتطرفة وظهور المتشددين كما هي الحال مع الزرقاوي نفسه.

(3)

في العشرين من تشرين اول/ اكتوبر عام 1966 وفي واحدة من أكثر أحياء الزرقاء بؤسا وفقرا وهو "حي معصوم" ووسط عائلة معدمة تنتمي إلى قبيلة "بني حسن" التي تنتشر وسط الصحراء القريبة ولد "أحمد فضيل نزال الخلايلة" والذي سيعرفه العالم بعد أكثر من ثلاثين سنة ب"أبي مصعب الزرقاوي"،أسم آخر يضاف إلى قائمة طويلة من الأسماء التي سيذكرها تاريخ المنطقة مرتبطة بالكثير من الشرور التي احاقت بها وأغرقتها بأنهار الدم واشاعت بين جنباتها روح الفتنة والتعصب.وبسبب ضيق اليد وكثرة افرادها التي فاق عددها العشرة،ثلاثة صبيان وسبع بنات،لم يستطع رب العائلة "فضيل نزال الخلايلة" الذي وظفته بلدية المدينة مختارا للمنطقة توفير أي من

متطلبات الحياة الاساسية لها مما حرم معظم افرادها من فرص التعليم ومن بينهم أبو مصعب نفسه الذي ترك مقاعد الدراسة في ثانوية الزرقاء والتي كانت تديرها وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين عام 1982 بسبب تدني مستواه وتوجيه المدرسة له للالتحاق بمدرسة مهنية بدلا عن ذلك.

ولم يكن أمام الفتى اليافع الذي كانت عائلته الكبيرة تعيش على راتب الاب المتواضع من فرص لكي يكسب من خلالها رزقه سوى العمل لفترة قصيرة في بلدية المدينة التي وفرت له وظيفة قبل ان يطرد منها بعد ستة شهور بسبب مشاكله المتكررة مع زملائه ويرتمى في احضان عالم المدينة السفلي حيث اشتهر كواحد من زعران او فتوات الحي الذين يتخذون مقبرة الزرقاء وعالمها الخفي مرتعا لهم ومنطلقا لنشاطاتهم الاجرامية وهي مرحلة مهمة من حياة الصبي الفقير التي سترسم لاحقا تحوله الذهني وسط عالم تنظيمات العنف السرية وتكرسه بعد ان اكتسب اديولوجية العنف كزعيم لواحد من أخطر الجماعات الإرهابية وأكثرها دموية التي شهدها العالم بداية القرن الحادي والعشرين.

ما يتناقله أهالي الزرقاء من قصص عن سوء سلوك اشهر ابن لمدينتهم الكثير والذي يصعب تصديق البعض منه الا أن المحصلة تبقى دائما كما هي شأنها مع رجالات العالم السري مادة مثيرة للاسئلة اكثر مما توفره من

إجابات.هناك قصص مثيرة عن هذه الفترة من حياة أبو مصعب يسمعها من يذهب إلى الزرقاء باحثا عن حقيقته بين أصحاب وجيران وأهل،العديد منها تصفه بانه لم يكن الا مجرد مراهق خارج عن القانون يمارس شأنه شأن امثاله الكثير من السلوكيات المشينة من معاقرة الخمرة ولعب القمار وحتى معاشرة النساء بل أن هناك من يذهب إلى أنه اوقف مرات عديدة في مراكز الشرطة بتهم تتعلق بالسرقة والسطو على المحلات وأيضا إلى أنه سجن لمدة ستة اشهر بعد اغتصابه لاحدى الفتيات!القليل من سكان "حي معصوم" أو سكان "حي الكسارات" الذي انتقلت اليه العائلة فيما بعد يتذكر سيرة أبو مصعب بخير والأكثر يبقى في حيرة عما يسمعه من تحوله إلى داعية إسلامي متطرف.

في أواسط الثمانينات ظهرت وبشكل مفاجىء علامات التدين على الشاب الزرقاوي دون مقدمات تذكر.صحيح أن والدته "دلة ابراهيم محمد الخلايلة" المعروفة باسم "أم صايل"،أكبر اولادها،كانت تتميز بالتدين الا أن ليس هناك ما يشير الى انها كانت ذي تأثير عليه.لكن الواضح أن تدينه أو ما يصطلح عليه الإسلاميون ببدء التزامه بدأ بتأثره ببروز الجماعات الإسلامية السلفية المتطرفة في مدينته حينئذ والتي كان عبد الله عزام قد زرع بذورها قبل ذلك بسنين.وكما هي العادة فان الأمور المتداولة في مثل هذا الفضاء تتعدى الجوانب الدينية البحتة مثل الفقه

والشريعة والتاريخ وتذهب إلى صلب القضايا التي تشكل أسس العقائد السلفية وخاصة الموضوع الاثير لديهم وهو الجهاد.كان ما يسمعه الزرقاوي الخالي الوفاض من أية معارف دينية من قادة هذه الجماعات وناشطيها من أفكار حفظها عن ظهر غيب مثل تكفير الانظمة وإجازة إهدار دم الكفار وما يستتبع ذلك من أساليب محاربتهم مثل نسف الجسور وقطع الطرق واطلاق النار على رجال ونساء بإجازة الدخول إلى الجنة من أوسع الأبواب قد لاقت هوى في نفس الشاب الضليل اضافة طبعا إلى ما كان يسمعه ويتقبله بطريقة عفوية وبسيطة من خلانه عن الجهاد الذي كان دائرا في افغانستان.كانت أخبار عبد الله عزام أحد قادة المجاهدين ومسؤول مكتب الخدمات والجهاد الذي يجند المجاهدين من كل أنحاء العالم في افغانستان تملأ مساجد ومنتديات الزرقاء وتجد صدى في نفوس شبابها التائه الذين تلقفهم الجماعات المتطرفة والتي سرعان ما ترسلهم الى افغانستان للإنضمام إلى المجاهدين.وبالنسبة إلى أبو مصعب فقد كان عام 1989 هو العام الحاسم في حياته حين اختار الالتحاق بالجهاد الافغاني وأرسل إلى هناك عن طريق فرع مكتب الخدمات والجهاد في الاردن والذي كان يديره آنذاك الشيخ "عبد المجيد المجالي."وتشير بعض المصادر إلى أن الزرقاوي قرر اللحاق بالجهاد في افغانستان بعد خطبة استمع اليها من القائد الاسلامي

الافغاني "عبد الرسول سياف" الذي زار الاردن آنذاك في حملة دعوية لجمع التبرعات للمجاهدين الافغان.
ويروى "عبد المجيد إبراهيم المجالي" المعروف باسم "ابو قتيبة الأردني" وهو من الافغان العرب قصة تجنيده للزرقاوي بقوله في مقابلة صحفية نشرت في 19 تموز / يوليو 2005 انه تعرف على الاخير عام 1988 عندما كان مديرا لمكتب خدمات المجاهدين الأفغان في الأردن وكان وقتها مبتدئا في صلاته والتعرف على دينه وبعدها قام بتسفير الزرقاوي إلى أفغانستان مضيفا انه لم يكن حينذاك سوى فرد من بين آلاف الأفراد الذين تم تسفيرهم إلى الباكستان ليكونوا قرب ارض الجهاد.ويقول المجالي انه سافر الى افغانستان عام 1986 لكنه عاد بعد سنتين إلى الاردن منتدبا من "عبد الله عزام" لوظيفة مدير مكتب الخدمات من أجل جمع التبرعات اضافة إلى مهمة القاء المحاضرات والدعوة للجهاد وهي الفترة التي تعرف خلالها على الزرقاوي وارسل أثناءها إلى افغانستان بينما كان الجهاد يطوي ايامه الأخيرة.
تشير مصادر الجماعات الإسلامية التي شاركت ضمن أفواج العرب الافغان في الجهاد ضد القوات السوفيتية قبل انسحابها من افغانستان أن الزرقاوي التحق بالمجموعات الاردنية والفلسطينية المشاركة في الجهاد والتي اتخذت من "معسكر خوست" مقرا لها حينذاك بعد تحريرها من قبل المجاهدين الافغان من ايدى الحكومة المدعومة من

السوفيت.فما أن وصل إلى معسكرات المجاهدين حتى تلقفه "صالح الهامي" وهو اردني تخرج في قسم الصحافة في جامعة اربد والتحق بعدها بالمجاهدين العرب في فترة مبكرة من بدء نشاطهم هناك حيث عمل في صحيفة تدعى "الجهاد" اسسها "عبد الله عزام" كناطقة باسم "مكتب الخدمات."كان الهامي أحد الذين تركوا انطباعات مبكرة عند الزرقاوي بعد أن تعرف على الهامي حين شارك في انقاذه بعد انفجار لغم ارضي به في خوست حيث نقله عبر ممر خيبر إلى مدينة بشاور الباكستانية للعلاج حيث اضطر الاطباء إلى بتر ساقه.كان الهامي،على اية حال ممتنا للزرقاوي الذي أنقذ حياته وهو الامر الذي وطد علاقاتهما بعد ذلك بل مالبث أن اصبح زوجا لاحدى شقيقات الزرقاوي وجرى احتفال عرضت شريطا له احدى القنوات التلفزيونية العربية عام 2004 ظهر فيه الزرقاوي شابا يافعا يبدو خجولا ومنطويا على نفسه.

وكان من أشد الذين تركوا أثرا على تكوينه آنذاك شخص يدعى فاروق والمكنى "أبو الحارث السلطي" الذي كان أميرا على مجموعات المجاهدين القادمين من بلاد الشام اضافة الى شخص آخر فلسطيني يدعى "أبو معاذ الخوستي" قُتل لاحقاً في معركة في كابول.وفي عام 1989 التقى الزرقاوي ايضا ب"عصام محمد البرقاوي" المعروف ب"أبي محمد المقدسي" الذي أمضى فترة في افغانستان قبل أن يعود إلى الكويت التي كان يسكنها حتى

الغزو العراقي عام 1990.ومن بين الذين التقى بهم الزرقاوي في هذه الفترة شخص يدعى "الأزميري" اتهم لاحقا بعلاقته بالمؤامرة التي كان يدبرها "خالد الشيخ محمود" لتفجير طائرات فوق الولايات المتحدة عام 1994 قبل أن ينجح الاخير بتدبير تفجيرات 11 أيلول/ سبتمبر 2001.

ليس هناك ما يؤكد أن الزرقاوي التقى في هذه الفترة مع "أسامة بن لادن" أو أعلن البيعة له أو انه التحق بتنظيم القاعدة الذي أسسه المليونير السعودي في تلك الايام التي كانت تشهد نهاية المغامرة الافغانية وبدء قيادات المجاهدين العرب في التفكير في الخطوة التالية.لكن هناك مايشير الى انه وافق رأي من كان يدعون من بين العرب الافغان ومن بينهم بن لادن نفسه الى ضرورة العودة إلى بلدانهم وبدء الجهاد هناك بعد أن تسلحوا بكل مستلزماته من تعبئة وتدريب نفسي وعسكري مقتنعين بانهم أدوا واجبهم الشرعي في افغانستان التي اصبحت في ايادي شركائهم في الجهاد من الجماعات الإسلامية الافغانية والذين سرعان ما بدأوا صراعا في ما بينهم على اقتسام التركة.

وعلى الرغم من أن الزرقاوي وصل متأخرا كثيرا إلى افغانستان ولم يشارك فعليا في المعارك الطاحنة التي دارت هناك الا أن مرحلة الجهاد الافغاني اضافت الكثير إلى تجاربه منها التهيئة النفسية والمعنوية والتدريب العسكري الذي تلقاه على ايدي محترفين في معسكرات

المجاهدين العرب وهي عوامل مهمة في تكوين أي مقاتل.اضافة إلى ذلك فقد اكتسب هناك مبادىء وأصول الفكر السلفي على آيادي اشخاص متمرسين في العقيدة السلفية ساهموا في تعميق التزامه بالتيار وتأصيله شرعيا كما هو مطلوب من أعضاء هذه الجماعات.لكن الاهم بالنسبة إلى الزرقاوي هو انه وجد في الجهاد الافغاني ضالته في التنفيس عن مكنونات روحه المضطربة وقلقه وحاجته التي لاتنقطع الى الفعل المصحوب بمزيج من القوة والتفوق والإستعراض.افغانستان كانت المحطة الثالثة التي شكلت شخصية الزرقاوي بعد مرحلة عالم الجريمة السري والتحول الديني قبل أن يشد رحاله عائدا إلى مدينته الزرقاء عام 1993.

(4)

كان المئات من الافغان الاردنيين قد سبق الزرقاوي بالعودة منذ عام 1991 وبينما ارتبط البعض منهم من ذوي الاصول الفلسطينية بحركتي "حماس" و"الجهاد الاسلامي" اللتان كانتا قد تأسستا في العقد السابق بدأ البعض بتشكيل تنظيمات جديدة برز منها تنظيم "جيش محمد" و"حركة الاصلاح والتوحيد" و"جماعة الدعوة والجهاد."وسرعان ما وجد العديد منهم ممن آمن بفكرة نقل الجهاد إلى بلادهم ضالتهم أولا في الدعوة إلى محاربة الامريكان الذين كانوا قد قادوا للتو حربا ضد صدام حسين لإخراجه من الكويت وفرضوا حصارا اقتصاديا على العراق.كانت الذريعة الاخرى هي بدء مفاوضات السلام

العربية الاسرائيلية في مدريد والاحتمالات التي بشرت بها بالتوصل إلى تسوية اسرائيلية فلسطينية ومعاهدة سلام اردنية اسرائيلية.على المستوى الإعلامي لجأت هذه الجماعات كما هو متوقع الى استخدام منابر المساجد والوسائل الاخرى في التنديد بالحكومة لمشاركتها في مفاوضات السلام بينما انهمكت على المستوى العملي في تجنيد عناصر جديدة من الشباب والقيام بتدريبهم في مناطق نائية في الصحراء.

ما ألهب حماس هذه الجماعات أيضا هو الانتفاضة الفلسطينية التي كانت قد اشتد آوارها بسبب إصرار الفصائل الإسلامية الفلسيطينية على رفض عملية السلام وكذلك إندلاع أعمال العنف الدامية في الجزائر اثر فشل العملية السياسية التي كان التيار الإسلامي بقيادة "جبهة الانقاذ الإسلامي" على وشك الفوز في الانتخابات التي اجريت بموجبها اضافة إلى الحرب التي اندلعت في البوسنة والهرسك اثر انهيار يوغسلافيا وفي الشيشان بعد تفكك الاتحاد السوفيتي مما شجع هذه الجماعات على إرسال العديد من المجاهدين الاردنيين للقتال إلى جانب الجزائريين والبوسنيين والشيشانيين التي عوضت بلدانهم عن افغانستان.

وسط هذه الظروف عاد الزرقاوي إلى الاردن معبأ بما تلقنه في افغانستان من دروس دينية وخبرات قتالية جعلت منه شخصية اخرى مختلفة عن تلك التي غادر بها الزرقاء

قبل حوالي اربع سنين رغم انه احتفظ بغلظته وشدة طبعه.منذ اليوم الأول لوصوله فرض على عائلته التي كانت قد انتقلت الى "حي رمزي" الان نمطا صارما من الممارسات كان من بينها أن امر كل افراد الاسرة من الرجال بارتداء الزي الافغاني بينما أجبر نساءها على لبس النقاب.ولم يقتصر الامر على ذلك بل منع الاسرة من مشاهدة التلفزيون.ومع ذلك لم يجد الزرقاوي مصدرا لكسب الرزق غير أن افتتح لنفسه محلا لتأجير اشرطة الفديو ربما غطاء لنشاطه القادم الذي بدأه فعلا بالترويج بين الشباب للافكار السلفية الجهادية التي عزم على نشرها.ولم يقتصر نشاطه على ذلك بل انه بدأ بالقاء الخطب في "مسجد الفلاح" القريب من مسكنه وفي المنتديات يتحدث فيها عن تجربة الجهاد في افغانستان ويحث الشباب على الاقتداء بها.

كان أبو محمد المقدسي قد سبق الزرقاوي إلى الاردن والتي جاءها محملا ليس فقط بالحماس بل بأفكاره الجهادية السلفية وعزمه على نشرها في بلده الجديد الاردن.استقر المقدسي في منطقة "ياجوز" على مشارف عمان وراح من هناك يبث أفكاره في الدعوة إلى العودة إلى السلف الصالح وتكفير الدول والجهاد ضد أعداء الله كما وينشر آراءه التي جاءت في العديد من كتبه ومن بينها كتاب جديد كان قد اصدره في تلك الفترة وسماه "الديمقراطية دين" يهاجم فيها اسلوب الحكم الديمقراطي ويعتبر كل من يؤمن

به أو يعمل وفقه كافرا وكان معنى ذلك هو تكفيره للنظام الاردني نفسه.
في أواسط عام 1993 التقى الزرقاوي مرة ثانية بالمقدسي بعد لقائهما الأول في بيشاور الباكستانية قبل سنوات.وفي شهادة نشرها المقدسي نفسه ذكر أن اللقاء حصل في بيته بعد أن نصح "أبو الوليد الانصاري" أحد الاردنيين الذين شاركوا في الجهاد الافغاني الزرقاوي بالاتصال بالمقدسي والتنسيق معه.ولم يعترض المقدسي الذي رأى في الزرقاوي وحماسه الشخص المناسب الذي كان يبحث عنه لمساعدته في نشر الدعوة فكان أن بدأ على الفور جولات نظمها الزرقاوي له على مساجد الزرقاء وجاء بالشباب المتحمس للقائه والاستماع إلى دروسه وخطبه النارية.ولم يكتف الاثنان بالتعاون في ترتيب الدروس والمواعظ ونشر الكتب بل قاما بانشاء تنظيم سمياه "التوحيد" الا انه عرف وفق تقارير الامن الاردني باسم "بيعة الامام".ومثلما هو معتاد فقد لجأ التنظيم الذي انضم اليه عدد من معارفهما الى المساجد وخاصة في الزرقاء والسلط يبثون فيها افكارهم ويجندون فيها الشباب مما اثار انتباه الأجهزة الأمنية التي كانت هذه المرة أكثر استعدادا للتعامل معهم بسبب اختلاف الظروف عما كانت عليه في الثمانينات حين كانت السلطات الاردنية شأنها شأن العديد من الحكومات العربية حينذاك تغض الطرف عن مثل هذه النشاطات لأسباب تتعلق بمرحلة الجهاد الافغاني ضد السوفيت.

وفي شهادة نشرها أحد الذين كانوا على صلة بالزرقاوي في تلك الفترة وهو "محمد ابو المنتصر" والذي حبس في نفس القضية في جريدة "القدس العربي" اللندنية أشار إلى تسرع الزرقاوي في العمل وانفراده باتخاذ القرارات ونرجسيته وتواضع خبرته التنظيمية بل مضى أكثر من ذلك إلى إتهام تنظيمه كونه مخترقا من المخابرات الاردنية والتي إشار إالى انها جميعا ساعدت بعد ذلك على وقوع المجموعة في الفخ.

بعد عام واحد من النشاط وفي 29 أذار/ مارس 1994 اعتقلت سلطات الأمن الاردنية الزرقاوي ثم بعد ذلك بخمسة ايام اعتقلت المقدسي وافراد آخرين اولا كما قالت لأسباب احترازية ومن ثم وجهت لهم اتهامات بالتخطيط لعمليات إرهابية بعد أن وجدت لديهم أسلحة ومتفجرات من بينها سبع قنابل يدوية وخمسة الغام ضد الاشخاص قيل أن المقدسي جلبها معه من الكويت التي كان قد غادرها بعد الغزو العراقي لها.وتشير اعترافات للمتهمين نشرتها السلطات الاردنية الى أنهم كانوا يخططون لمهاجمة أهداف اسرائيلية في الاردن.كان من كشف المؤامرة للسلطات هو عبد الهادي دغلس أحد اعوان الزرقاوي الذي اعتقلته قوات الأمن قبل بدء التنفيذ.

حكم على الزرقاوي والمقدسي بالسجن لمدة خمسة عشر عاما في محاكمة علنية تبرأ فيها الجميع من اعترافاتهم كما استخدموا فيها وخاصة المقدسي قاعة المحكمة لتحدي

الحكومة وبث أفكاره المتطرفة.وفي الفترة الأولى من الحبس توثقت علاقة الزرقاوي بالمقدسي حيث رضع الأول من الثاني جل افكاره السلفية الجهادية التي كان قد دبجها في بعض الكراسات والكتب اشهرها "ملة ابراهيم" و "رسائل بناء الابطال بابعادهم عن الاوحال" و "الكواشف الجلية" وكلها كتيبات مليئة بالفكر التفكيري والإستحلال والإستباحة.كان "سجن سويقة" الصحراوي الذي نقلا اليه بعد الحكم بمثابة الميدان الجديد الذي خاض فيه الزرقاوي صفحة جديدة من جهاده ولم يلبث إن تمكن داخل السجن من إبراز مواهبه في القيادة التي اكتسبها سواء من شوارع الزرقاء كأزعر أو من معسكرات المجاهدين في افغانستان والتي مكنته من فرض هيمنته على الجماعة وسطوته على باقي المساجين حيث انتهى الامر به أميرا لتنظيم "بيعة الامام" بدلا من المقدسي الذي رضي أن يلعب دور مفتي المجموعة ومرشدها الروحي.
في سويقة أو السجون الاخرى التي تنقلوا فيها بعد ذلك قضى الزرقاوي شهورا طويلة في حفظ القرآن الكريم ونشط في إغناء معلوماته ومعارفه في القضايا الإسلامية في سبيل بناء خلفية ثقافية أو شرعية كما يقال في مصطلحات الجماعة ولكن الأهم من كل ذلك أنه تمكن من بناء شبكة من المريدين والأنصار وضم إلى مجموعته العشرات من المجرمين وأصحاب السوابق الذين قيل انهم اهتدوا على يدي المقدسي ويديه معتمدا في ذلك على

الموقع الذي اكتسبه من إمارته على التنظيم والإرادة الحديدية التي اظهرها في التعامل معهم.
هناك شهادات عديدة نشرها البعض ممن زاملوا الزرقاوي في السجن منهم النائب الإسلامي "ليث شبيلات" والصحفي "فؤاد حسين" كما نشر المقدسي نفسه شهادة عام 2004 تطرقت جميعها اضافة إلى شهادات آخرين بعضهم كان من حراس السجن أو من زواره إلى وضع الزرقاوي في السجن والتي تبين انه كان يتمتع بوضع مختلف عن باقي السجناء مثل عدم ارتدائه الزي الخاص بالسجن وغض إدارة السجن النظر عن الكثير من الأشياء التي كان يقوم بها في ترسيخ سطوته على السجناء مثل الجولات الحرة في العنابر والالتقاء بالسجناء.كان السجن محطة مهمة في مسيرة الزرقاوي،حتى أن البعض ممن كان على صلة به آنذاك،ومنهم نسيبه الهامي،قال أنه لم يكن يشعر في السجن بأي قلق أو إنزعاج،بل على العكس كان السجن هو المكان الذي يرى فيه نفسه،وهو شعور عبر عنه الزرقاوي ذاته في رسائل بعثها من هناك إلى أمه وزوجته أم محمد بل أنه أمضى ليلة اضافية أخيرة في سجن "الجفرة" الذي كان فيه على الرغم من صدور قرار الافراج صباحا.وكانت تلك هي في الواقع محطته الرابعة بعد فتوته في الزرقاء ورحلته الافغانية وعودته إلى الاردن والتي طبعت جميعها ومحطات قادمة أخرى شخصيته

ومنحتها شدتها بل قسوتها التي ظهر بها إلى العالم فيما بعد.
في عام 1999 خرج الزرقاوي من السجن بموجب عفو ملكي عام اصدره الملك عبد الله الثاني بمناسبة توليه العرش على الرغم من وجهة نظر ابداها الامن الاردني بان اطلاق الجماعة سيشكل خطرا على أمن المملكة.لكن الزرقاوي لم يلبث وأن غادر الاردن بعد ستة أشهر وفي بعض الروايات شهر واحد فقط ميمما وجهه مرة ثانية شطر افغانستان.الكثيرون اعتبروا اطلاق الزرقاوي لغزا وتسائلوا كيف يفرج عن شخص بهذه الخطورة خاصة وان لدى سلطات الأمن والمخابرات الاردنية المعلومات اللازمة عن نشاطاته الخطيرة سواء قبل رحيله الأول إلى افغانستان أو أثناء التحاقه بالجهاد وبعد عودته اضافة إلى النشاطات التي قام بها في السجن في التجنيد وتنظيم الجماعة.وسواء أكان الامر ناتجا عن تحولات فكرية جرت داخل السجن أو بسبب الضغوط التي كان يتوقع انه سيواجهها من الأجهزة الأمنية الاردنية فان الكثيرين تساءلوا عن سبب عودة الزرقاوي إلى افعانستان التي كانت قد سقطت بيد حركة سلفية هي طالبان والتي اقامت فيها إمارة إسلامية وهو الذي هجرها قبل سنوات للعودة إلى الاردن سعيا للبدء بقتال العدو الاقرب أي النظام الاردني نفسه.ما لذي جعله يغير موقفه ويتخلى عن الجهاد في الاردن أو ضد اسرائيل؟ذلك سيظل لغزا كبيرا في

مسيرة الزرقاوي الجهادية مهما سيحاول هو أو أتباعه من تفسيره.

(5)

غادر الزرقاوي بلده الاردن وفي داخله شعور كما عبر عنه هو لاحقا في رسالة كتبها من العراق وبثت على احدى المواقع الإسلامية في 25 آيار/ مايو 2004 انه يمضي في طريق الله طاعة له وجهادا في سبيله.في محطة وصوله الأولى في بيشاور اعتقل رجال الاستخبارات الباكستانية الزرقاوي بعد وصوله بفترة قبل أن يطلقوا سراحه بعد ثمانية أيام ويسمحوا له بمواصلة السفر إلى افغانستان.لم تعلن السلطات الباكستانية سببا للاعتقال الا أن الزرقاوي نفسه أشاع بان الأمر يتعلق بالإقامة علما انه كان يحمل سمة دخول تسمح له بالبقاء ستة شهور.كانت الإستخبارات

الباكستانية الوثيقة الصلة بالمخابرات الأمريكية والسعودية هي التي تدير الاتصالات والعلاقات مع طالبان الذي هيمن نظامها على افغانستان في الوقت الذي تخبطت فيه السياسات الأمريكية والسعودية في التعامل مع طالبان بسبب التهديدات التي أصبح يشكلها بن لادن ومجموعته ضد البلدين منذ أن عاد إلى افغانستان وبدأ حملته الجديدة عليهما.في الفترة التي وصل فيها الزرقاوي إلى افغانستان كانت كل الأطراف المعنية تعيد حساباتها وتعيد تخطيط سياساتها لما بدا إستعدادا لمعارك كبيرة آتية بين إمريكا وبن لادن بسبب الحرب الشاملة التي أعلنها تنظيم القاعدة والجماعات المتحالفة معه والتي أصبحت بعد تفجيرات السعودية وشرقي افريقيا وإكتشاف خلايا متطرفة في أوربا وجنوب شرقي آسيا حربا ليس باستطاعة الأطراف جميعا إدارتها بالطرق القديمة خاصة وأن العالم بدأ يدرك الخطر الكامن الذي شكله إنتشار الافغان العرب العائدون في مختلف بقاع العالم.

كان بن لادن قد عاد إلى افغانستان في عام 1996 بعد خروجه ورهطه من السودان نتيجة الضغوط التي تعرض لها نظام الجبهة الأسلامية القومية بقيادة "حسن الترابي" وخاصة الضغوط السعودية والامريكية بعد محاولة الإغتيال الفاشلة التي تعرض لها الرئيس المصري "حسني مبارك" في العاصمة الاثيوبية في حزيران / يونيو 1995 على يد مجموعة تنتمي للجماعة الإسلامية المصرية والتي

اثبتت التحقيقات انها جاءت من السودان.تزامنت عودة بن لادن مع انتصار حركة طالبان المتشددة واستيلائها على العاصمة الافغانية كابل.وكان ذلك بمثابة الفرصة التي طالما تمناها بن لادن للظفر بقاعدة ينطلق منها في جهاده الذي اتخذ في هذه الفترة طابعا اميا،سواء على مستوى الأهداف أو الآليات التي سينفذ بها مخططاته الجهادية على مستوى العالم.ولعل اعلان بن لادن عن تشكيل الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبين عام 1998 كان الناقوس الذي قرع آجراس الخطر في كل مكان على ان أممية إسلامية بقيادة المليونير والمنشق السعودي بدأت تتشكل؛هدفها شن حرب مقدسة على العالم برمته.

هل كان الزرقاوي في قراره الذهاب إلى افغانستان يبغي الانضمام إلى ذلك التنظيم وأن يضع نفسه تحت امرة بن لادن الذي كان قد ذاع صيته في تلك الأيام باعتباره زعيم الجهاد العالمي؟لا يوجد مؤشر على ذلك فكل ما كان قد ذكره الزرقاوي إلى أصحابه ومحاميه "محمد الدويك" هو أن الاردن لم يعد المكان الذي يستطيع أن يعيش فيه وأن يمارس دعوته كما أن نسيبه "صالح الهامي" ينقل عنه أنه بينما كان في السجن وقبل اطلاق سراحه شاهد حلما رأى فيه سيفا وقد نقشت على نصله عبارة جهاد وهو ما فسره بانه دعوة الهية له للذهاب إلى أرض يكون بمقدوره أن يمارس الجهاد.

تذكر مصادر الجهاديين أن الهدف الأول للزرقاوي من ذهابه إلى افغانستان كان العبور من هناك إلى الشيشان والالتحاق بخطاب زعيم المجاهدين العرب الذين يشاركون الشيشانيين القتال ضد الروس الا أنه غير رأيه لأسباب غير معلومة.في افغانستان حل أولا في "معسكر الفاروق" والتقى بصحبه من الاردنيين والفلسطينيين والسوريين من أتباع تنظيم "جند الشام" الذي كانت بذوره قد نبتت في مرحلة الجهاد ضد السوفيت والذين كانوا قد عادوا للعمل مع بن لادن أو في القتال مع طالبان.ولا تتوفر أية مؤشرات على أن الزرقاوي كان من الأهمية في اوساط المقاتلين العرب بحيث يبدأ حال وصوله إلى افغانستان دورا كبيرا في صفوفهم حتى أن بن لادن نفسه لم يستقبله أو يسعى إلى مقابلته رغم انه حل أولا في بيت ضيافة تابع للقاعدة ثم في "معسكر الفاروق" الذي يشرف عليه تنظيم القاعدة.الاتصال الوحيد الذي جرى بين الزرقاوي وقيادات القاعدة كان من خلال "ابو زبيدة" وهو أحد الاردنيين من أصل فلسطيني الذي كان مساعدا رئيسيا لبن لادن والقائد العسكري للقاعدة في كابل،وكذلك "سيف العدل" الذي يعتقد انه "محمد مكاوي" الضابط المصري السابق المعروف والمسؤول الأول عن الجهاز العسكري والأمني للقاعدة.

ما هو معروف الآن أن خلافات دبت بين الطرفين أدت بالزرقاوي ومجموعة من رفاقه أن يغادروا "معسكر

الفاروق" حيث سمحت له حركة طالبان بفتح معسكر آخر للعرب في منطقة "هيرات" الشيعية غربي افغانستان.وحسب مصادر الجهاديين فان الخلاف كان يدور حول إستراتيجيات الجهاد وأولوياته،وتشخيص العدو الذي يجب تركيز الحرب عليه،أي حسب ادبياتهم الاختيار بين العدو القريب،أي الحكام والأنظمة،أو العدو البعيد،أي الأمريكان والصليبيين واليهود.بينما تشير مصادر ووثائق مخابراتية إلى أن الخلاف كان يعود إلى أسباب اخرى منها ما يعود إلى التنافس التقليدي الذي شهدته ساحات الجهاد الافغاني ضد السوفيت بين المجاهدين ذوي الاصول الشامية وبين المصريين والسعوديين والخليجيين الملتفين حول بن لادن.والواقع أن لا شخصية الزرقاوي ولا خبرته سواء في ميادين الجهاد أو الشريعة ولا نفوذه ولا سمعته كانت لتمنحه القدرة في الدخول في منافسة أو حتى جدال مع بن لادن وقادة القاعدة مما يضع العديد من علامات الإستفهام حول رحلة الزرقاوي الثانية في افغانستان والأسباب التي جعلته يشد الرحال اليها.

لم يلبث الزرقاوي الذي جاء إلى افغانستان هذه المرة معززا بما تلقفه من أسس الفكر السلفي الجهادي على يد المقدسي وبالإمارة على تنظيم "بيعة الامام" والتي أكسبته مركزا مرموقا بين الجهاديين في الاردن أن كشف عن خياراته والتي اتضحت بإقامة جماعة موازية وربما منافسة للقاعدة ولبن لادن.لم تفلح لقاءات اجراها أولا "ابو

زبيدة" وبعده "سيف العدل" مع الزرقاوي في إقناع الأخير بإعلان البيعة لبن لادن ولا في حل الخلافات الأساسية سواء ما كان منها ذي علاقة بقضايا عقدية وأحكام الشريعة وخاصة قضايا التكفير والولاء والبراء أو مواقف عملية تتعلق بكيفية إدارة الجهاد.بالنسبة لبن لادن ومساعده الأول أيمن الظواهري اللذين كانا يتابعان لقاءات مساعديهم مع الزرقاوي عن كثب ادركا منذ وقت مبكر أن للزرقاوي طموحات شخصية كبيرة مثلما لديه برنامج مختلف مما خلق فجوة بينهما وزاد من شكوكهما في مبغاه ومسعاه اللذين اعاداه الى افغانستان.

كان بن لادن قد أعلن عن تنظيمه الدولي المتمثل في "الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين" وبدأ مرحلة جديدة من عمله التي تركز على توجيه الضربات إلى الولايات المتحدة الامريكية أو رأس الافعى كما كان يدعوها وكان ينتظر من الزرقاوي ومن الجهاديين الاردنيين والفلسطينيين مثلما ينتظر من غيرهم أن يمنحوه ولاءهم ودعمهم حتى لا يشوشوا على إستراتيجيته الجديدة بمواقف أو تصرفات يراها متناقضة أو مضرة.والواضح أن بن لادن الذي رسخ سمعته ومركزه في هذه الفترة كزعيم لا يبارى لكل جهاديي العالم الإسلامي لم يعر الكثير من الاهتمام للزرقاوي في هذه المرحلة وهو تصرف ينم عن عدم اكتراث أكثر مما ينم عن خشية من منافسة لكنه

مع ذلك أبقى بعض الخيوط الضرورية ممدودة مع الزرقاوي لأهداف مستقبلية.
وافقت حركة طالبان بان توفر للزرقاوي الذي قضى فترة في معسكر صغير في منطقة "لوغو" خارج كابل ولمجموعته الصغيرة قاعدة في منطقة "هيرات" الشيعية البعيدة والمحاذية لايران بعيدا عن معسكرات القاعدة في قندهار وجلال آباد وهو اختيار ذو دلالات كبيرة خاصة وأن الاقليم كان يروم بنشطات معادية لطالبان تقوم بها جماعة الجنرال الشيعي القوي "اسماعيل خان" وربما جاء اختيار الزرقاوي لها بسبب رغبته في قتال الشيعة الذين كان لا يخفي عداءه لهم بل وتكفيرهم.غير أن الأمر أثار شكوكا لدى الكثير من المجاهدين الذين رأوا أن فتح معسكر مستقل للزرقاوي في "هيرات" في اقصى الغرب الافغاني سيجعله بعيدا عن وصاية بن لادن وسيطرة القاعدة وتتيح له استقلالية تعزز من هيبته وسطوته في الأوساط الجهادية بل ذهب البعض إلى أن هدفه هو إقامة كيان منافس لها.
وسرعان ما بدأ الزرقاوي العمل بمساعدة الثلة التي رافقته أو التي التحقت به وابرزهم "خالد العاروري" و"عبد الهادي دغلس" (أبو عبيدة) والسوري "سليمان خالد درويش" المعروف باسم "أبو الغادية" حيث أقاموا المعسكر في قاعدة عسكرية قديمة للجيش الافغاني على مشارف "هيرات" واعدوا برامج التدريب العسكري

والتثقيفي وأقاموا شبكة الاتصالات اللازمة للعمل والتي تربطهم مع الخارج والتي تتيح لهم العون بمختلف أشكاله وخاصة التمويل الذي بدأ يأتيهم عن طريق أنصار الجهاد وخاصة من السوريين المتواجدين في أوربا وبالذات في المانيا عن طريق رفاقه السوريين.وتشير وثائق لدى المخابرات الألمانية مستندة إلى اعترافات قدمها ناشط تونسي يدعى "سيف الله بن حسن" اعتقلته المخابرات الألمانية أن خلايا متعاونة مع الزرقاوي بدأت تنشط في هذه الفترة في أوربا وأن هذه الخلايا كانت ترتبط بالقاعدة أيضا.

كان التكتيك الذي اتبعه الزرقاوي تقليديا في ما جرت عليه الحركات السرية في بناء تنظيمها وفقا للمراحل وكانت تلك المرحلة وفقا لمصطلحات الحركات الإسلامية هي "التمكين" أي الانتظار حتى يشتد عودها ومن ثم تنخرط في صلب المشروع الذي قامت من أجله.في هذه المرحلة كان هدف الزرقاوي هو تحييد بن لادن وجماعة القاعدة وعدم الاصطدام معهم وكسب ما امكن من العون والمساعدات المادية وغيرها وكذلك كسب ود ومساعدة حركة طالبان واختار لذلك قتال ألد اعدائهم،الشيعة الذين لم يكن يحمل لهم ودا ابدا وجاء من الاردن محملا تجاههم ببغضاء لا حدود له،مستمدة من نمط عقيدته السلفية التي تكفرهم وتستبيح قتالهم.كما كان اختياره لمقاتلة الشيعة الافغان فرصة ليحمل عن حركة طالبان أعباء

مقاتلتهم،وهم الذين لا يقلون كراهية لهم عنه،ويحملهم جميلا ينتظر مكافأتم عليه.
ولم يمض وقت طويل حتى تمكن الزرقاوي من خلال نشاطاته في مقاتلة شيعة "هيرات" من إقناع طالبان باهميته،وهو الأمر الذي أكسبه ثقتهم والمزيد من العون الذي مكنه من توسيع المعسكر أولا وترسيخ مشروعه الخاص ثانية.كان الزرقاوي يراقب عن كثب نشاطات بن لادن التي امتدت إلى مناطق عديدة من العالم ويرى العبأ الذي تلقيه على حركة طالبان بسبب الضغوط الدولية التي تمارس عليها والتهديدات التي توجه لها مما حدا به الى توثيق علاقته بطالبان هذه الفترة حتى يتمكن من اجتياز مرحلة التمكين ويشتد عود تنظيمه.والواقع أن العلاقة الثلاثية بين القاعدة وطالبان والزرقاوي في هذه الفترة كان يشوبها الكثير من التعقيد وعدم الوضوح حيث انهم يلتقون من جهة على مبادىء عامة لكنهم يختلفون حول إستراتيجيات وتكتيكات العمل بسبب تباين المصالح والأهداف.
لم يلبث الزرقاوي كثيرا في "هيرات" وفي افغانستان حين دارت الدوائر عليه ثانية بعد بدء الحرب الأمريكية ضد طالبان نهاية عام 2001 حيث شنت قوات الجنرال "اسماعيل خان" الشيعية هجوما كاسحا على معسكره ادى إلى هروبه واتباعه إلى قندهار.بعض مصادر الجهاديين الذين تمكنوا من الهرب من افغانستان بعد الحرب ذكروا

أن بيتا كان يحتمى فيه أبو مصعب ورفاقه في قندهار تعرض الى قصف الطائرات الأمريكية حيث ادى القصف إلى انهيار سقف البيت مما ادى إلى إصابة الزرقاوي في صدره أو في رجله قبل أن يفر إلى خارج المدينة التي كانت في طريقها للسقوط بيد تحالف الشمال الافغاني الذي كان يخوض الحرب البرية لاسقاط طالبان.
اين ذهب الزرقاوي وأفراد عائلته ومن بينهم زوجته الثانية اسراء ذات ال 13 ربيعا بنت "ياسين جراد" أحد أعوانه والتي تزوجها قبيل وصوله الى "هيرات" والذين كانوا جميعا يرافقونه بعد ذلك؟وكيف استطاع تفادي الملاحقة الأمريكية والافغانية للعرب الذي كانوا هناك والاهم من ذلك كيف اشترى طريقه من رجال القبائل الافغان الذين كانوا يلقون القبض على أي عربي يعثرون عليه ويبيعونه للأمريكان حيث ينتهي بهم المقام في قاعدة "برغام" أولا وبعدها في غوانتانامو؟هنا تطرح الكثير من التساؤلات والتي ستضع الاجابة عليها اذا ما وضعت النقاط على الكثير من الحروف المبهمة عن مسيرة الزرقاوي القادمة.بعض مصادر الجهاديين تقول انه انتقل من قندهار إلى كهوف "تورا بورا" على الحدود الشرقية والقريبة من باكستان والتي كان يدكها القصف الأمريكي بعد تقارير عن انها اصبحت معاقل لبن لادن وبقية فلول القاعدة المتوارية غير أن لا دليل ظهر بعد ذلك من وجوده هناك والأرجح

هو عبوره الحدود غربا مباشرة إلى اقليم بلوشستان ومن ثم ظهوره في مدينة "مشهد" الايرانية.
لماذا يهرب الزرقاوي إلى ايران وهو المعروف بكراهيته الشديدة للتشيع والتي يعتبرها عقيدة فاسدة لا تستقيم مع الإسلام؟ما تقوله مصادر الجهاديين هو انه بقي فترة في ضيافة جماعات من البلوش السنة الذين يشكلون غالبية سكان المقاطعة الجنوبية الشرقية لايران قبل أن يختفي من هناك ويظهر في العراق بعد شهور.ما لا تشير اليه هذه المصادر هو أن الزرقاوي كان لديه شبكة في ايران تعمل بعلم "اطلاعات" أي وزارة المخابرات الايرانية والحرس الثوري وأن شخصا يدعى "ياسر حسن" يعمل باسم حركى هو "ابو علي" كان قد جاء من المانيا للاشراف على إخراج الزرقاوي من افغانستان إلى ايران.في 12 تشرين الثاني / نوفمبر 2001 رصدت المخابرات الألمانية مكالمتين تلفونيتين عبر تلفون الثريا من ايران اجرى الاولى "ابو علي" والثانية شخص آخر يدعى "أشرف عماد" تكلم الاثنان مع أشخاص في المانيا عن الزرقاوي وقالا انه رغم اصابته في الهجمات الأمريكية فانه في طريقه إلى ايران.وتكمل مصادر الاستخبارات الغربية في تقارير نشرتها مراكز بحوث متخصصة أن الزرقاوي ومجموعته دخلوا ايران بمعرفة السلطات الايرانية عبر مدينة "زاهدان" على الحدود الشرقية يوم 12 كانون الاول /ديسمبر 2001 ومنها اجرى مكالمة تلفونية مع اعوان له

في ألمانيا أخبرهم فيها بدخوله ايران كما ابلغهم بقيامه بتحويل مبلغ 40 الف دولار طالبا منهم تدبير جوازات سفر مزورة له ولعائلته كل ذلك قبل ان ينتقل في 5 كانون الثاني/ يناير 2002 إلى "مشهد" المدينة الايرانية القريبة أيضا من الحدود مع افغانستان والتي يتخذها جهاز المخابرات الايراني التابع للحرس الثوري الذي يمسك بالملف الافغاني مقرا له قبل ان ينقله إلى طهران.
ماذا حدث في طهران يبقى من الأسرار الكبيرة التي تحيط بمسيرة الزرقاوي حيث يقول أنصاره من المجاهدين انه اعتقل من قبل السلطات الايرانية لثلاثة اشهر ثم اطلق سراحه بينما تؤكد المصادر الاستخباراتية الغربية انه كان طيلة هذه المدة في ضيافة الحرس الثوري الايراني مع مجموعات اخرى من الافغان العرب ومن بينهم قيادات وكوادر لتنظيم القاعدة اشارت بعض التقارير ان من بينهم "سعد" ابن أسامة بن لادن والكويتي "سليمان ابو غيث" المتحدث الرسمي باسم القاعدة و"سيف العدل" و"مصطفى حمزة" قائد "الجماعة الاسلامية المصرية" الذي سلمته ايران في وقت لاحق لمصر وغيرهم الكثير من الافغان العرب بعضهم سلمتهم ايران أو سمحت لهم بتسليم انفسهم إلى بلدانهم فيما بعد.ومن بين اقوى الادلة التي توفرت على البعد الايراني هو الاعلان في 13 تموز / يوليو 2004 تسليم السعودي "خالد الحربي" (أبو سليمان المكي) الذي ظهر في شريط مع بن لادن عرض في كانون الاول/

ديسمبر 2001 نفسه إلى السفارة السعودية في طهران حيث نقل بعد ذلك إلى السعودية حيث كشف لمحققيين سعوديين وأمريكيين معلومات عن فترة وجوده في ايران في ضيافة الحرس الثوري اضافة إلى الكثير من المعلومات عن العناصر العربية المتطرفة الموجودة في ايران.

وكانت مجلة "نيوزويك" الأمريكية قد نقلت في عددها الصادر في 25 تشرين أول/ اكتوبر 2003 عن ضباط مخابرات اردنيين قولهم بوجود ابو مصعب في ايران في تلك الفترة أي قبل الحرب بحوالي عام بل انهم اخبروا المجلة أيضا بان السلطات الايرانية سمحت للزرقاوي خلال تلك الفترة بالسفر إلى شمال العراق وسوريا وتركيا قبل أن يعود إلى ايران ثانية في شهر آذار /مارس 2002.وأشارت المجلة إلى أن العلاقة التي أقامها جهاز استخبارات الحرس الثوري مع الزرقاوي هي التي وفرت له بعد ذلك سبل الانتقال مع جماعة من اتباعه إلى العراق في مرحلة حرجة كانت الحرب الأمريكية لاسقاط صدام حسين في مراحل اعدادها الاخيرة.ما لم تذكره المجلة هو أن وفدا من المخابرات الايرانية زار طهران في تلك الفترة في محاولة لإقناع الايرانيين لاسترداده بحجة انه كان سجينا في الاردن الا أن الايرانيين رفضوا ذلك وتحججوا بانه كان دخل ايران بجواز سفر سوري نافذ.

ما أورده الصحافي الألماني "برونو شيرا" من معلومات نشرها في مجلة "سيسيرو" في ربيع 2005 وفقا لتقرير حصل عليه من المخابرات الالمانية مثير للاهمية حيث أكد الجهاز الألماني الذي كان يتابع الزرقاوي منذ سنين ان الأخير حصل على جوزات سفر ايرانية عن طريق "فيلق القدس" التابع لحرس الثوري الايراني بأسماء "ابراهيم قاسم رضا" و"عبدالرحمن حسان التحيحي" تمكن خلالها في تلك الفترة من التجول في العراق وإيران وسورية والاردن وتركيا وباكستان وصولاً إلى جورجيا وشمال القوقاز.ما يؤكده التقرير هو أن نشاطات الزرقاوي الإرهابية "لم تكن لتتم لولا الدعم بالمال والسلاح الذي تلقاه على مدى أعوام من منظمات حكومية عدة تابعة لدول شرق أوسطية ومنها جمهورية ايران الاسلامية والصقور العاملون في محيط فيلق القدس التابعة للحرس الثوري.

في طهران قضى الزرقاوي حوالي أربعة شهور حصل خلالها على رعاية طبية مكنته من معالجة الاصابة التي الحقت به كما ظل على إتصال مع أفراد من جماعته المتواجدين معه في ايران مثلما بقي على اتصال مع أفراد آخرين من أنصاره في الخارج عبر خط تلفون كان مسجلا باسم شخص يدعى "رشيد هارون" ويسكن في طهران اضافة إلى تلفونات محمولة واخرى تعمل عبر الاقمار الصناعية،كان الواضح انها موضع مراقبة من أجهزة المخابرات الدولية.وفي طهران ايضا أشرف الزرقاوي

على اجتماعات مع ممثلين من مجموعة "أنصار الاسلام" الكردية أرسلهم "الملا كريكار" الذي تزعم المنظمة في هذا الوقت عقدت في شهر آب/ اغسطس مثله فيها "خالد العاروري" و"عبد الهادي دغلس" والتي تم الاتفاق فيها على إنشاء قاعدة للزرقاوي في المنطقة التي تحت سيطرتهم.في هذه الفترة اجريت الاستعدادات اللازمة للخطوة التالية للمجموعة حيث قرر الزرقاوي إرسال بعض أفراد المجموعة إلى العراق عبر المناطق الجبلية المحاذية لايران للالتحاق بمجموعة "أنصار الاسلام" على أن يلتحق هو بها في مرحلة لاحقة.

(6)

لا أحد يعرف على وجه الدقة متى انتقل الزرقاوي إلى العراق وأي طريق سلك في دخوله وتحت أي ظروف وأين أستقر به المقام اولا هل في المنطقة الجبلية التي ينشط فيها حلفاؤه الإسلاميون من "أنصار الاسلام" والتي هي جزء من المنطقة التي يسيطر عليها الاكراد ام في عموم العراق الذي كان نظام صدام حسين لا يزال يمسك

بقبضته الامنية الحديدية على كل مفاصل الحياة فيها.غير أن هناك اتفاقا بين المصادر الجهادية والمخابراتية والإعلامية على أنه وصل إلى العراق في مرحلة سبقت الحرب التي شنتها الولايات المتحدة في آذار/ مارس 2003 باشهر وربما كان ذلك في ربيع عام 2002 وانه امضى فترة في مستشفى في بغداد يعود إلى اللجنة الاولمبية التي يرأسها "عدي صدام حسين" عولج فيها تماما من بقايا الجروح التي اصيب بها في افغانستان.قبل ذلك بقليل كانت مجموعة صغيرة من أنصاره قد وصلت إلى العراق ودخلت إلى المناطق التي يسيطر عليها نظام صدام ومنها بغداد ومناطق اخرى قريبة حيث بدأت الاستعدادات فورا على العمل ومن ضمن ذلك انشاء قواعد لها وهو الأمر الذي أشار اليه وزير الخارجية الأمريكية "كولن باول" في تقريره إلى مجلس الأمن في 5 شباط /فبراير 2003 حيث ذكر أن الشبكة التي اقامها الزرقاوي في بغداد كانت فعالة هناك منذ اكثر من ثمانية اشهر.ما ذكره باول ايضا مستندا فيما يبدو على معلومات وفرتها المخابرات الاردنية هو أن الإدارة الأمريكية حذرت نظام صدام عبر طرف ثالث لم يسمه من مغبة ايواء هذه العناصر في العراق.

في هذه الفترة ظهرت أيضا العديد من التقارير التي ربطت الزرقاوي بمجموعات متطرفة في المانيا تعمل تحت

مسمى جماعة "التوحيد" وتقيم علاقات مع المتطرف الاردني من اصل فلسطيني والذي يعيش في بريطانيا "عمر محمود أبو عمر" والمعروف باسم "أبو قتادة" الذي تعتبره المخابرات الغربية سفير القاعدة في أوربا والذي سيرد أسمه فيما بعد بأعتباره حلقة الوصل الاولى بين بن لادن والزرقاوي وبين الشبكات الاوربية.ما عزز هذه التقارير هو قيام الشرطة الالمانية بالقبض على حوالي 15 شخصا من جنسيات عربية وإسلامية مختلفة بتهم تتعلق بارتباطهم مع مجموعة الزرقاوي.بعدها وردت تقارير اخرى لمكتب حماية الدستور(الاستخبارات الالمانية) اشارت إلى وجود خلايا ناشطة تسمى نفسها "مقاتلو الجهاد" تضم على الأقل 150 عضوا خاصة في مقاطعات "بافاريا" و"بادن فورنتبيرغ" و"برلين" مع تركيز لعملها في مساجد يأوى إليها متطرفون مثل "مسجد النور" ب"حي نيوكولن" في برلين وبيت الثقافات المتعددة في مدينة "أولم الجديدة."هذه المجموعات كما تبين من التحقيقات كانت على صلة بالزرقاوي وتقوم بجمع التبرعات منذ زمن وخلال وجوده في ايران ثم انتقاله للعراق وإلى سوريا في هذه الفترة.

ومن قاعدته في داخل الاراضي العراقية قام الزرقاوي بإعادة تنظيم صفوف جماعته في الاردن والتي ذكرت في بيان اصدرته مسؤولية تنفيذ عملية اغتيال شخص اسرائيلي يدعى "اسحق سنير" في عمان في 6 آب

/أغسطس 2002 ادعت انه عميل للموساد ومن ثم عملية اغتيال الأمريكي "لورنس فولي" الذي يعمل في "هيئة المعونة الامريكية" في 28 تشرين أول / اكتوبر 2002 في العاصمة الاردنية وهو الأمر الذي أكدته السلطات الاردنية بعد اعتقالها لأردني وليبي وفلسطيني أقروا بانهم تلقوا أوامر واموال من الزرقاوي لتنفيذ عمليتي الاغتيال وكذلك القيام بهجمات اخرى على اهداف غربية واسرائيلية في الاردن بينما أشارت تقارير أخرى إلى نشاط لهذه المجموعات مع نشطاء في سوريا وتركيا وايطاليا مما أثار الانتباه إلى امكانية أن تكون هذه النشاطات مرتبطة بمجموعة "جند الشام" التي ارتبط بها الزرقاوي في افغانستان وأصبح لها ارتباطات مع مجموعات اخرى.

في نفس الفترة وربما بعدها بقليل أشارت العديد من التقارير إلى وجود الزرقاوي ضمن مجموعته التي أرسلها للاستقرار في قاعدة تعود لتنظيم "انصار الاسلام" في المنطقة الكردية من شمال العراق في الوقت الذي بدأت الاخبار تتواترعن نشاطات هذا التنظيم في المنطقة والصدامات بينه وبين "حزب الاتحاد الوطني الكردستاني" الذي يسطير عليها.كان تنظيم "انصار الاسلام" قد نشأ في كانون الاول/ ديسمبر 2001 من اندماج مجموعتين كرديتين اسلاميتين متطرفتين هما "جند الاسلام" الذي كان يقوده "ابو عبد الله الشافعي" وتنظيم منشق عن "الحركة الاسلامية في كردستان" بقيادة "نجم الدين فرج" الذي

يعرف باسم "الملا كريكار"،وكلا الرجلين من الذين شاركوا في الجهاد الافغاني قبل عودتهما الى العراق.ما أن قويت شوكة التنظيم الذي اتخذ من قرى كردية محاذية للحدود الايرانية ملجأ له حتى أعلن الجهاد وبدأ اعضاؤه بفرض ممارسات واساليب كانت أقرب إلى تلك التي تقوم بها حركة طالبان في افغانستان حيث هاجموا صالونات الحلاقة النسائية وأغلقوا مدارس البنات بل وتمادوا واغتالوا نساء لم يكن يرتدين الحجاب.ولم يقف نشاط التنظيم الذي قدر عدده ب 700 شخص على هذا المستوى الدعوي بل ظهر واضحا من هجمات قاموا بها ضد زعامات سياسية كردية مثل اغتيال "فرانسو حريري" أحد قادة "الحزب الديمقراطي الكردستاني" ومحاولة اغتيال "برهم صالح" رئيس وزراء الحكومة التي يديرها "الاتحاد الوطني الكردستاني" في السليمانية كما جرت صدامات مسلحة مع القوات الكردية كشفت جميعها عن نية وسعي الجماعة إلى الاستيلاء على المنطقة وتحويلها إلى إمارة اسلامية على غرار طالبان وتعويضا عن إمارتهم في افغانستان التي قضت عليها الحرب الأمريكية التي شنت في تشرين الثاني/ نوفمبر/ 2001.

في خضم صراعه مع "انصار الاسلام" روج "الاتحاد الوطني الكردستاني" لمعلومات استقاها من انصار الحركة المعتقلين لديه عن علاقات التنظيم مع كل من القاعدة بزعامة بن لادن ومن جهاز مخابرات صدام،منها مثلا

استلام الانصار لمبلغ يصل الى 600,000 دولار من بن لادن اضافة إلى كميات من الأسلحة والعتاد وكذلك مبلغ 35,000 دولار من جهاز مخابرات صدام والذي شغل فيه ضابط يدعى أبو وائل مهمة الارتباط بين التنظيم ومقر المخابرات العراقية في بغداد.الأمريكيون دعموا هذه المعلومات من وثائق قالوا انهم عثروا عليها في بيوت تعود للقاعدة في افغانستان تشير إلى أن وفدا من التنظيم الجديد زار افغانستان في آب / أغسطس 2001 وتحدثوا مع بن لادن بشأن خطط إعلان التنظيم والذي سرعان ما التحق به حوالي 40 مقاتلا من تنظيم "جند الشام" أغلبهم من الاردنيين والسوريين والفلسطينيين إضافة إلى بعض المغاربة جاؤوا من افغانستان وبدأوا عملهم في تكوين نواة المجموعة العربية إضافة إلى تدريب المجندين الاكراد.ما عزز هذه المعلومات هو مقتل المتشدد الاردني "رائد خريسات" مع مجموعة من الاردنيين والسوريين في الاشتباكات مع قوات "الاتحاد الوطني الكردستاني" قبل الحرب حيث أقامت له عائلته عرسا استشهاديا في مدينة "السلط" وهو الأسلوب الذي سيتكرر بعد ذلك مع العشرات من شباب السلط الذي يقتلون في عمليات في العراق.ما كشفه بعض الذين اعتقلتهم قوات الاتحاد حينها هو أن القادمين من افغانستان من العرب كانوا يركزون على مسألتين مهمتين بالنسبة لهم وهي التثقيف على مبادىء الفكر السلفي الجهادي والتدريب على العمليات الانتحارية

وكأنهم يهيئون انفسهم لمعركة آتية توقعا للحرب التي ستشنها الولايات المتحدة على العراق واسقاط نظام صدام حسين.وكان مقتل "عبد الهادي دغلس" الرفيق الملازم للزرقاوي في الهجمات التي شنتها الطائرات الأمريكية اثناء الحرب على قواعد "انصار الاسلام" في قريتي "طويلة" و"بيارة" على الحدود مع ايران دليلا آخر على تواجد هذه المجموعة هناك وانخراطها في القتال.

ما يثير التساؤل في هذه المرحلة هو البعد الايراني سواء في ايواء الزرقاوي وجماعته أو في دعم أو حتى غض النظر عن نشاطات تنظيم "أنصار الاسلام" في القرى المحاذية لحدودها حيث نشطت الجماعة هنا باعتبار ايران حديقتها الخلفية وحيث باستطاعة مقاتليها استخدام الحدود لحماية ظهورهم إضافة إلى السماح لهم بالاستفادة من الامكانيات اللوجستية عبر الحدود مثل تسوق المواد المعيشية وشراء الاسلحة والانتقال إلى مناطق ودول اخرى للارتباط بالقاعدة في افغانستان أو التنظيمات الجهادية في بلدان اخرى.مالذي يمكن أن تجنيه ايران سواء من غض الطرف عن نشاط التنظيم أو مساعدته هو الكثير على عكس ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن بشأن شيعية ايران وسنية وتشدد "انصار الاسلام" والافغان العرب الذين يلتحقون بهم.فاولا ان ايران وحتى تحت حكم النظام الاسلامي تصرفت دائما وفق حسابات مصلحتها القومية التي تأتي بالدرجة الأولى متقدمة على هويتها

الشيعية.وثانيا فايران تدرك أن وجود نظام ديمقراطي أو حكومة مدعومة من أمريكا في المنطقة الشمالية من العراق لابد وأن يشكل خطرا على الوضع الكردي في داخلها،وبالتالي،فان اضعاف وضعضعة الحزبين الرئيسيين واللذين يتبنيان منهجا علمانيا تحرريا في المنطقة الكردية من العراق هو لمصلحتها القومية.هذا إضافة طبعا إلى أن ايران لابد وأنها كانت قد ادركت في وقت مبكر أن سقوط نظام صدام حسين لم يعد الا مسألة وقت وأن تحالفها مع الاسلاميين المتطرفين ومساعدتهم سيشكل حجر الزاوية في سياستها القادمة لبث الفوضى في العراق الذي سيحتله الأمريكيون.ولما كانت ايران تدرك بان احدى نتائج الحرب هو جعل أمريكا المعادية لها جارة لبعض الوقت،فإن من مصلحتها الاكيدة إفشال المشروع الأمريكي بكل السبل الممكنة ومنها إغراق العراق بالإسلاميين المتطرفين الذين سيتولون شن حرب عصابات دموية طويلة المدى حتى لو كانوا من السلفيين الذين يكفرونها.

لكن يبقى هناك سؤال وهو لماذا لم تحاول الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت خلال تلك الفترة تفرض منطقة الحظر الجوي على الاقليم الكردي وتتواجد فيه اجهزتها الأمنية والعسكرية والتي كانت تراقب عن كثب نشاطات "انصار الاسلام" وصنفتها كواحدة من تنظيمات الارهاب الدولي،لماذا لم تحاول القضاء على المجموعة التي كانت

عناصرها بدأت تنشط في كل اتجاه او حتى أن تساعد "الاتحاد الوطني الكردستاني" على انهاء وجوده المسلح في المنطقة وهي مهمة اذا ما كانت انجزت قبل الحرب لشكلت حينها ضربة موجعة ان لم تكن قاصمة لكل من القاعدة ولنظام صدام ولايران في آن واحد ولمنعت اندلاع العنف الارهابي الاعمى الذي عرقل العملية السياسية المطلوبة في عراق ما بعد الحرب.

في وقت لاحق بدأ الكلام يتصاعد في الاعلام الدولي عن وجود الزرقاوي في المناطق التي هي تحت سيطرة نظام صدام حسين دون توفير دلائل دامغة عن مكان وجوده بالتحديد أو النشاطات التي يمارسها أو فيما اذا كان ذلك باتفاق وتنسيق مع الأجهزة الأمنية العراقية أم أنه تمكن من تأسيس قواعده دون علم النظام كما رددت بعد ذلك ادبيات الحركات الجهادية.من الصعب حتى على اجهزة المخابرات الغربية أن تحصل على أدلة من هذا النوع في بلد كان تحت قبضة أجهزة صدام الامنية والمخابراتية لكن عدم توفرها في ذلك الوقت بالدقة المطلوبة لا ينفي،في نفس الوقت،عدم وجودها بل قد يشير فقط إلى صعوبة الوصول اليها.وفي غياب الأدلة كانت هناك دلائل مهمة منها تأكد وجود الزرقاوي في قواعد "انصار الاسلام" في المناطق الكردية في الفترة السابقة ومنها هو أن وجوده في بغداد أو المناطق التي هي تحت سيطرة الحكومة تزامن مع

دعوة صدام للمتطوعين العرب والمسلمين إلى العراق للمشاركة في الحرب عشية اندلاعها.
ففي الشهرين اللذين سبقا الحرب كان هناك آلاف من المتطوعين وصلوا إلى العراق وانضموا على الفور الى معسكرات تدريب يشرف عليها ضباط المخابرات العراقية ويشارك في التدريب فيها المتطوعون العرب من ذوي الخبرة.وفي أثناء الحرب شارك المئات من هؤلاء المتطوعين العرب في القتال أولا في المعارك التي دارت في الأيام الأولى من الحرب في "أم قصر" المدينة الجنوبية التي شهدت أول دخول للقوات البريطانية المشاركة في الحرب ثم في بغداد اثناء اقتحام القوات الامريكية للعاصمة العراقية قبل أن تسقط بيديها في 9 نيسان/ابريل 2003. وما أن وضعت العمليات العسكرية أوزاها حتى كان هؤلاء المتطوعون ينتشرون في بغداد والمدن العراقية السنية تحت حماية ورعاية بعض العراقيين وخاصة حركة "انصار الاسلام" التي نزل من تبقى من انصارها بعد الضربة الأمريكية لمعسكاراتها على الحدود مع ايران إلى المناطق العربية السنية وخاصة الموصل وكركوك.وبسرعة تدل على تخطيط وتنسيق مسبق بدأت هذه المجموعات التي التحقت بها مجموعات أخرى قادمة من دول عديدة عبر الحدود العراقية المفتوحة على تنظيم نفسها والشروع في ضرب القوات الامريكية والعراقيين الذين اعتبرتهم متعاونين معها.

هل كان بامكان هؤلاء المقاتلين أن ينشطوا دون تعاون وتنسيق مع عراقيين آخرين ممن لهم مصلحة وهدف في مقاومة الوضع الجديد الذي افرزته الحرب واسقاط نظام صدام حسين وخاصة فلول ذلك النظام من كبار البعثيين وضابط الأمن والمخابرات والأجهزة الاخرى ممن خشوا العقاب الذي كان ينتظرهم من الشعب العراقي بعد ان لوثوا ايديهم بدمائهم وحولوا العراق إلى بلد المقابر الجماعية الأول بلا منازع ؟الجواب على ذلك يكمن في الخطط التي يبدو أن صدام وضعها لمقاومة القوات الأمريكية بعد الحرب بعد أن أدرك بانه لن يجد من يقف معه من العراقيين كي يقدم نفسه قربانا لحرب اخرى يخوضها دون هدف أو غاية وطنية.كان واضحا منذ البداية أن صدام لن يحارب الأمريكان على الرغم من كل العنتريات التي اطلقها بدفنهم على أسوار بغداد.والواقع أن خيار صدام الوحيد كان خيار شمشون وهو تدمير العراق على من فيه طالما انه ليس تحت حكمه وسيطرته وهو الأمر الذي حدا به الى دعوة المتطوعين العرب من غلاة السلفيين الجهاديين ممن يكنون كراهية لا مثيل لها للشيعة الذين كان صدام يتوقع ان يكون لهم اليد العليا في عراق ما بعد سقوط نظامه.

ما له دلالة بهذا الصدد هو الرسالة التي وجهها صدام يوم 24 آيار/ مايو 2003 إلى من سماهم بالمجاهدين في كل مكان وأبناء العروبة وأعضاء حزب البعث دعاهم فيها إلى

مقاطعة كل من تنصبه القوات الغازية وإلى طرد كل خائن أيد الاحتلال.في تلك الرسالة يقول صدام (يا مجاهدي المسلمين والعرب ويا من هو بعثي في كل مكان هذا هو يومكم الذي لا بد أن يظهر دوركم إن عراقكم يدعوكم لتزيدوا من خوف وقلق ورعب أمريكا).الامر الآخر الذي لم يدركه الكثيرون حتى المراقبون للوضع العراقي هو أن صدام شجع خلال الفترة التي تلت حرب الخليج الثانية عام 1991 الاتجاهات الوهابية والتي ترتبط بالخارج وخاصة المؤسسة الدينية السعودية والتي غزت بشكل سريع المناطق السنية في العراق وبنت قواعد لها في المساجد والمؤسسات وبين الشخصيات الدينية والتي سرعان ما أطلت برأسها بعد سقوط النظام بشكل فاعل وخاصة على مستوى التجنيد والتعبئة والتحشيد.ولم تمض الا أسابيع قليلة حتى كانت المناطق التي تنشط فيها التيارات الوهابية الوافدة حاضنة نشطة للسلفيين الجهاديين القادمين من الخارج مشكلين معهم تحالفا هدفه منع بناء العراق من جديد.

في هذه المرحلة يبدأ أيضا الدور السوري الذي سيتطور لاحقا في الفترة التي تلي الاحتلال الامريكي الى دعم كامل لمجموعة الزرقاوي تمثل في تقديم تسهيلات لا حدود لها شملت تسهيل انتقال المقاتلين الذين يفدون من كل مكان عبر الحدود العراقية وايوائهم وتوفير دعم لوجستي كامل يشمل معسكرات تدريب وخدمات الاتصالات والتحويلات

المالية ودعم التنسيق بينهم وبين المجموعات البعثية التي نقلت قيادتها الى داخل المدن السورية.وعلى خلاف ما تنفيه السلطات السورية من عدم وجود أدلة على تورطها في دعم الزرقاوي فقد قدم كل من "الجنرال ريكاردو سانشيز" القائد الامريكي في العراق و"الجنرال جون ابي زيد" قائد القوات المركزية مثل هذه الادلة في اجتماعين منفصلين إلى كل من "اللواء ماهر الاسد" شقيق الرئيس السوري وقائد الحرس الجمهوري وإلى "اللواء شوكت آصف" زوج أخت الرئيس "بشار الاسد" ورئيس المخابرات العسكرية في اجتماعين منفصلين كما قدم مسؤولون عراقيون أدلة اخرى.

ما توفره المعلومات المخابراتية هو ان الزرقاوي وصل إلى سوريا في فترة سبقت أيلول / سبتمبر عام 2002 وبجواز سفر سوري مكنه من الانتقال بين العراق وسوريا والاردن وانه خطط لعملية قتل الدبلوماسي الأمريكي "لورنس فولي" في عمان من هناك مثلما حصل على الاسلحة ومنها المسدس ذو عيار 7ملم الذي استخدم في العملية.ولا تقتصر المعلومات عن الزرقاوي في هذه الفترة على وجوده هناك بل على الشبكة الواسعة من العلاقات التي كان سوريون،سواء في داخل سوريا،او خارجها،طرفا فيها والتي مكنته في مرحلة ما بعد الحرب من تحويل سوريا إلى القاعدة الخلفية له والتي اصبح الدور السوري فيها شبيها بدور الباكستان في المرحلة

الافغانية من الجهاد.ولعل التفسير الوحيد للدور السوري هنا هو نفس التفسير الذي برر لايران أن تلعب نفس الدور نظرا للمخاطر التي وجدتها دمشق من إمكانية تطور الوضع العراقي إلى ما يشكل خطرا عليها.

وعموما فان وجود الزرقاوي في العراق قبل الحرب لم يكن سرا،وجاء أقوى تأكيد على أن الزرقاوي وجد له مأوى في مناطق تسيطر عليها الحكومة العراقية من العاهل الاردني "الملك عبد الله الثاني" الذي كشف في 19 آيار /مايو 2005 بانه كان يعلم بوجود الزرقاوي داخل العراق قبل سقوط النظام السابق.وذكر في مقابلة مع صحيفة "الحياة" بان الحكومة الاردنية بذلت جهودا كبيرة لإحضاره إلى الاردن لمحاكمته ولكن المطالبات للنظام السابق بتسليمه ذهبت أدراج الرياح.وأكد الملك عبد الله في المقابلة بانه كانت لدى الادرن معلومات أن الزرقاوي كان دخل العراق من بلد مجاور،في إشارة إلى ايران وانهم في الاردن كانوا يعرفون أين يقيم في العراق وماذا يعمل وانهم أطلعوا سلطات نظام صدام على هذه المعلومات الدقيقة التي كانت بحوزتهم لكن السلطات العراقية لم تتجاوب مع المسعى الاردني لتسليمه.

(7)

في التاسع والعشرين من آب / أغسطس 2003 أي بعد الحرب التي شنتها الولايات المتحدة على العراق بحوالي عشرة شهور تم اغتيال "السيد محمد باقر الحكيم" رئيس المجلس الاعلى للثورة الاسلامية في العراق بعد وقت قليل من مغادرته مرقد الامام على بن ابي طالب في النجف الاشرف حيث أمَّ صلاة الجمعة بالمئات من المصلين الذين

بدأوا منذ عودته إلى العراق يؤدون الصلاة خلفه كل أسبوع في المرقد الشريف.جرت عملية الاغتيال بسيارة مفخخة كان يقودها على الأقل انتحاري واحد وادى الانفجار الى مقتل 127 عراقيا شيعي اضافة إلى الحكيم نفسه الذي كان منذ عودته من ايران بعد الحرب بقليل قد أصبح الزعيم السياسي الشيعي الابرز الذي لا يبز قيادته الا الزعيم الروحي والمرجع الديني الاعلى "اية الله علي السياستاني."بالنسبة للمحللين كان يصعب من الناحية العملياتية عدم الربط بين مذبحة النجف وبين تفجيري السفارة الأردنية في بغداد في السابع من آب / أغسطس ومقر الأمم المتحدة في التاسع عشر من الشهر نفسه واللذان خلفا ايضا اعدادا كبيرة من القتلى بسبب التقارب بين أسلوب التفجير في الحالات الثلاث والتي استخدمت فيها سيارات مفخخة.من هذه الناحية كان واضحا أن الهجمات الثلاث كانت على مستوى عال من التخطيط والتنفيذ والمتابعة مما يعني أن جهازا أو تنظيما ذا خبرة عالية لا بد وان يقف وراء هذه السلسلة من التفجيرات.

اضافة إلى ذلك فقد بدت العمليات الثلاث محسوبة بشكل جيد من ناحية الهدف السياسي الذي يجمعهما وهو محاولة زرع الفوضى في العراق وتدمير أية عملية لإعادة بناء البلد بعد الحرب ومنع أي دور عربي أو دولي في ذلك وشق وحدة الصف الوطني العراقي وخاصة بين الشيعة والسنة والتمهيد لصراع طائفي ولحرب أهلية تمهيدا

لتحقيق الهدف النهائي وهو استيلاء الجماعات الجهادية السلفية على السلطة في العراق والذي يقولون انهم يريدون ارجاع الخلافة الاسلامية اليه.فهدف ضرب السفارة الاردنية كان توجيه رسالة إلى الدول العربية بعدم فتح سفاراتها في العراق مما يؤدي إلى عزلة الحكومة الانتقالية التي انيط بها بدء عملية سياسية تؤدي إلى كتابة دستور وتشكيل حكومة دائمة.وهدف ضرب مبنى الامم المتحدة كان تعطيل دور المنظمة الدولية في العملية السياسية وبالتالي حرمان المجموعة الدولية من لعب أي دور في العراق.اما اغتيال الحكيم فقد كان واضحا انه يستكمل حلقة الأهداف تلك من خلال إثارة حرب طائفية مبكرة بين الشيعة والسنة.في البداية وجهت أصابع الاتهام إلى ازلام نظام صدام السابق باعتبارهم أصحاب مصلحة حقيقية ومباشرة في ذلك يهدفون من ورائها توجيه ضربة قاتلة للعملية السياسية واحباطها حتى يتسنى لهم العودة لحكم العراق.ورغم أن صدام حسين الذي لم يكن قد اعتقل بعد،سارع إلى نفى التهمة عن نفسه وعن فلول نظامه التي كانت قد نشطت في عمليات مقاومة الوضع الجديد الا أن ذلك لم يكن ليمنع الافتراض بامكانية تعاون هؤلاء مع المنفذين الحقيقيين.

ولم يلبث أن خرج البعض يوجه الاتهامات إلى اسرائيل في اغتيال الحكيم على أساس الفرضية التي دائما ما يرددها المؤمنون بنظرية المؤامرة من أن هدف اسرائيل المبيت

في المنطقة سيبقى تقسيم المنطقة وتجزئتها وهو ما يستدعي احداث الفتنة المذهبية بهدف تقسيم العراق وتفتيته طائفيا وعرقيا ودينيا خدمة للمشروع الصهيوني.وهناك من وجه سهام اتهاماته إلى الأجهزة الأمريكية دون أن يقدم اية تبريرات جادة أو أدلة منطقية عن المصلحة الأمريكية في اغتيال الحكيم سوى الركون إلى افتراضات على أساس انها قد تكون عملية استباقية تهدف لإنهاء دوره مبكرا بهدف الابقاء على اطراف شيعية ضعيفة يسهل التعاون معها والاعتماد عليها أو ترويضها.

وفي نفس الوقت وجه البعض اصابع الاتهام إلى ايران رغم أن الاسباب التي ذكرت لدعم الاتهام كانت مرتبكة واحيانا متناقضة.فالبعض رأى ان الحكيم كان قد خرج أو في طريقه للخروج من العباءة الايرانية وأن الوعود التي قطعها حال وصوله للعراق في العمل على بناء عراق ديمقراطي فيدرالي والدور البارز الذي بدأ يلعبه في الحياة السياسية العراقية لا يتلاءم مع الاهداف الايرانية بعيدة المدى في العراق وفي المنطقة مما يستدعي التصدي له.ولم ينجو البعض من الشيعة من الاتهامات بقتله على اساس أن الأمر كان جزءاَ من الصراع الشيعي-الشيعي على الزعامة والنفوذ في العراق الجديد الذي سيلعب فيه الشيعة دورا محوريا ورئيسيا.فهناك من سارع باتهام "مقتدى الصدر" وجماعة "جيش المهدي" بالقتل على اساس انهم أكثر المستفدين من اختفاء الحكيم من الساحة

السياسية نظرا للمنافسة الحادة بين الطرفين وايضا لتصفية حسابات قديمة تعود للمنافسة على النفوذ بين الحكيم وبين والد الصدر "آية الله محمد صادق الصدر" الذي اغتالته اجهزة صدام عام 1999.

لكن سرعان ما تبددت كل هذه النظريات حين تتوالت التفجيرات الانتحارية وبدأت تستهدف المراكز والمناسبات الشيعية مثلما حدث في الهجوم على مواكب العزاء في ذكرى أربعين "الامام الحسين" في "كربلاء" و"الكاظمية" في الثاني من أذار/ مارس 2004 وبعدها الهجوم الذي اغتيل فيه عضو "مجلس الحكم الانتقالي" الشيعي "عبد الزهرة عثمان" يوم الثامن عشر من آيار / مايو 2004 ثم تتابعت الهجمات الارهابية التي استهدفت في البداية شخصيات شيعية معروفة ثم رجال دين ومساجد شيعية ثم افرادا من منتسبي الدولة والجيش والشرطة ثم تحول الأمر الى مهاجمة أي مكان يتجمع فيه الشيعة من اماكن عملهم إلى محطات النقل التي يستخدمونها بل وحتى المدارس والمستشفيات.وكان جليا أن الهدف من وراء كل تلك الهجمات المنظمة والمنسقة هو التنكيل بالشيعة بطريقة تستفزهم وتدعوهم للرد بشكل مماثل.

ولم ينتظر الزرقاوي كثيرا حتى بدأ باصدار بياناته في تكفير الشيعة وتخوينهم ومساواتهم باليهود والصليبيين وتبرير قتلهم ككفار وبذلك أعلن ما يمكن أن يعتبر استراتيجيته السياسية ضمن مشروعه الجهادي في العراق

دون لبس او مواربة.وقد اثارت هذه الاستراتيجة الكثير من الاسئلة سواء عن مشروعيتها الدينية او مبرراتها الاخلاقية أو عن جدواها السياسية كما أثارت أسئلة اخرى عن موقف الجماعات السلفية الجهادية الاخرى ومنها تنظيم القاعدة وموقف مشايخ هذه التيارات وغيرهم منها.

لماذا يعتبر الزرقاوي الشيعة عدوه الاول اللدود؟في رسالته المشهورة التي بعث بها الى تنظيم القاعدة والتي عثرت عليها القوات الامريكية مع مبعوث له كان في طريقه الى ايران بداية عام 2004 قدم الزرقاوي أول تبريراته عن قتال الشيعة حين رسم خطة عمله المستقبلية وحصر العدو فيها بأربع جهات وهم الأمريكيون والأكراد وجنود وشرطة العملاء والرافضة مشددا على أن الفئة الأخيرة هم مفتاح التغيير أي أن استهدافهم وضربهم في العمق الديني والسياسي والعسكري سيستفزهم ليظهروا كلهم على أهل السنة.في تلك الرسالة التي كشف "حذيفة" ابن "عبد الله عزام" في حديث ل"قناة العربية" يوم 27 تموز/ يوليو 2005 عن امتلاكه نسخة منها يقول الزرقاوي أن هدفه من قتل الشيعة هو دفعهم إلى الرد على تلك العمليات بعمليات مماثلة ضد السنة وبذلك يجبر أهل السنة الذين يصفهم بانهم صوفيون هلكة على الدخول في مشروعه الجهادي في العراق.

وبوضوح يحسد عليه يؤكد الزرقاوي "ان الحل، والله تعالى أعلم، الذي نراه أن نقوم بجر الرافضة إلى المعركة

لأنه هو السبيل الوحيد لإطالة أمد القتال بيننا وبين الكفار.ونقول لا بد من جرهم للمعركة فإذا استطعنا أن نضرب بهم ضربات موجعة الضربة تلو الضربة حتى يدخلوا في المعركة استطعنا أن نخلط الأوراق عندها لا يبقى قيمة وتأثير لمجلس الحكم ولا حتى للأمريكيين الذين سيدخلون إلى معركة ثانية مع الرافضة وهذا ما نريد وسيقف -شاؤوا أو أبوا- كثير من مناطق أهل السنة مع المجاهدين وعندها يكون المجاهدون قد أمنوا لهم أرضاً ينطلقون منها في ضرب الرافضة في عقر دارهم مع توجيه إعلامي واضح ومع إيجاد عمق استراتيجي وامتداد بين الإخوة في الخارج والمجاهدين في الداخل."

وفي رسالة له بعنوان "موقفنا الشرعي من حكومة كرزاي العراق" نشرت في تموز / يوليو 2004 يدعي الزرقاوي بان هدف الشيعة هو ليس النجف بل المثلث السني وبذلك يحاول دفع السنة العراقيين إلى الحرب المذهبية التي يخطط لها.وفي شريط بث على مواقع الانترنيت بصوت الزرقاوي يوم 30 آيار / مايو 2005 حدد المتطرف الاردني بشكل لا لبس فيه موقفه من الشيعة حيث يصف الزرقاوي الشيعة،أو الروافض كما يحب ان يناديهم، بانهم "أشد علينا من اعدائنا الصليبيين" أي انه يوضح وبصريح العبارة انهم العدو الأول الذي يجب اجتثاثه قبل المسيحيين.وجاءت أكثر أهداف الزرقاوي تحديدا من الشيعة في شريط آخر بث يوم 14 أيلول / سبتمبر 2005

حين أعلن حربا شاملة عليهم في جميع أنحاء العراق وأقسم الا تأخذه بهم رأفة ولن ينالوا منه رحمة.كما ندد بالسنة العرب العراقيين لعدم وقوفهم إلى جانبه وإستجابتهم إلى نداءاته

هذه الأفكار والمبادىء عن الشيعة هي التي شكلت الذخيرة الاديولوجية التي لجأ اليها الزرقاوي لتبرير مشروعه الإرهابي في العراق والذي كما ادعى مرارا يرمي إلى إجتثاث الشيعة كطريق للانتصار على الغرب اليهودي والنصراني واقامة الخلافة الاسلامية المنشودة.اما من أين استقى الزرقاوي كل هذا الحقد والكراهية للشيعة فان من الواضح أن منبع افكاره هذه يعود إلى مدرسة تكفيرية قديمة معروفة في التاريخ الاسلامي تنتهج في عدائها للشيعة نفس المنهج التكفيري لمعظم السلفيين التقليديين ابتداء من "أبن تيمية" ومرورا ب"محمد بن عبد الوهاب" وانتهاء بالسلفيين الجدد من الذين يتصدون للدعوة وخاصة في المملكة العربية السعودية أو من تأثر بالفكر الوهابي الذي أسس لدعاوي التفكير في العصر الحديث.يقوم هذا المنهج على أساس تسخيف معتقدات الشيعة والدعوة ببطلانها بهدف إثبات ضلالها وبالتالي دمغهم بالكفر مما يعني في الناحية العملية تخيرهم اما بالتخلي عن معتقداتهم تلك بالاستتابة والانضمام إلى الفرقة الناجية التي هي أصحاب هذا النهج أو بإعتبارهم كفرة مما يعني وجوب تطبيق الحدود عليهم اذا ما امتنعوا عن ذلك.تقول مختلف

الادبيات التكفيرية عن الشيعة والتي لا حصر لها بان الرافضة كما تسميهم اعداء للملة وسبب لتفريق الأمة فدينهم(وليس مذهبهم) قائم على النفاق وعلى عبادة القبور والأولياء وعلى إستحلال المحرمات كالفروج وغيرها من التهم التي لا تطعن في إسلامهم فقط بل وفي قيمهم الاخلاقية وفي انسانيتهم.والاستنتاجات التي تصل اليها هذه الفتاوي هي دائما الدعوة إلى معاداتهم والتبرىء منهم وتحذير الناس منهم وتكفيرهم وتخيرهم بين السيف أو الإسلام الذي يرونه.

والزرقاوي لا يأتي بجديد فهو يستقي زاده من ذلك الفكر الاقصائي كما انه شأن أي محارب يلجأ إلى الحرب النفسية والدعاية لدعم خطابه كما فعل مرات عديدة بالإشارة إلى الشيعة كونهم احفادا ل"أبن العلقمي" وزير "المستعصم" بالله آخر الخلفاء العباسيين الذي سقطت في عهده بغداد على يد المغول عام 1256 والذي تتهمه كتب التواريخ السنية بانه خان "المستعصم" لدى المغول في رواية يشوبها الكثير من عدم الامانة والافتقاد إلى الدقة والتحري التاريخي حيث يستعيرها الزرقاوي لتأكيد ما يدعوه في العديد من أشرطته بضلالتهم وخيانتهم للمسلمين.والواقع أن لجوء الزرقاوي إلى هذه الحكاية الملفقة وهي التي لجأ اليها صدام حسين قبله يكشف أن عداءه للشيعة يقبع في ثنايا عقله الباطن وأن ذلك سبق بكثير الحرب الأمريكية على العراق بل سبق حتى انخراطه في مشروعه الجهادي.ما

يؤكد هذا الإستنتاج هو الرواية التي ذكرها أحد الكتاب البعثيين الاردنيين والذي أعد كتابا عن الزرقاوي من أن الأخير انغمس في بعض مراحل مسيرته في افغانستان بقراءة ما توفر له من كتب عن "نور الدين زنكي" (1118-1174) الذي تولي إمارة حلب في بعض فترات الحروب الصليبية حيث أعجب الزرقاوي كثيرا بما قام به في محاربة الصليبيين ودفع غزوهم لحلب.غير أن ما لا يذكره الكاتب عن سر إعجاب الزرقاوي بزنكي هو تلك الروح المعادية للشيعة التي غرزها زنكي في ابن اخيه "صلاح الدين الايوبي" والتي تشبع بها قبل قضائه المبرم على الدولة الفاطمية الشيعية في مصر،وهي روح حاول الزرقاوي تقمصها بإعتبارها من مستلزمات مشروعه الجهادي.

بغض النظر عن حقيقة الإلهام التاريخي الذي مثله زنكي فان ما فعله الزرقاوي هو زرع بذرة خطيرة للتكفير الطائفي وحرب المذاهب في التربة العراقية لا يمكن ان يوقف زحفها الى باقي دول المنطقة ما لم يتم تدارك ذلك بجهود صادقة وحقيقية.هناك الآن احتمالات عديدة مفتوحة يعتمد امكانية تحققها على عوامل عديدة اهمها مدى التأييد والدعم الذي سيلقاه الزرقاوي من سنة العراق أولا ومن باقي سنة المنطقة.حقا أن هناك حالة من السيطرة والتحكم من حكومات المنطقة والدول المجاورة للعراق بالذات لابقاء مشروع الزرقاوي في الحدود التي لا تسمح

بالانفلات لكن هناك دائما مخاوف جدية من تعديها خطوطا معينة حيث أن حصوله على دعم سني واسع للمضي في مشروع إبادة أو سحق الشيعة سيزيد بالنتيجة من حالة الاستقطابات المذهبية وسيرسخ من مخاوف الحروب المذهبية ليس في العراق فحسب بل في المنطقة برمتها.
ففي تصريحات أدلى بها "عبد المجيد إبراهيم المجالي" المعروف باسم "أبو قتيبة الاردني" والذي تقول الأوساط الجهادية انه من جند الزرقاوي وأرسله إلى افغانستان،يقول فيها "الشيعة أشد علينا عداوة من اليهود... والدليل هو ما نراه في العراق فإن الولايات المتحدة ترغب بإعادة نهج الدولة الفاطمية في العراق وإيران ودليل ذلك ما فعلته حركة أمل الشيعية اللبنانية في السبعينيات في مخيمات الفلسطينيين في لبنان.ويضيف المجالي "وتأكيد صدق كلامي هذا هو أن جيش صدام حسين المؤلف من مليون مقاتل تم سحقه من جانب الغزو الأمريكي بلمح البصر بينما الإعلام يجلجل عن حزب الله على أنه يقارع اليهود والسؤال هو ألا تستطيع أمريكا سحق هذا الحزب الذي لا يتجاوز عدد عناصره بضعة آلاف؟".
وفي 26 تموز / يوليو 2005 أرسل تنظيم "جند الشام" بيانا بتوقيع "القاعدة في بلاد الشام" إلى "دار الافتاء الجعفري" في مدينة "صور" بجنوب لبنان يهدد باغتيال تسع شخصيات سياسية ودينية لبنانية شيعية ويزعم أن الزرقاوي أنشأ مجموعات ستباشر بتنفيذ الاغتيالات ضد

الشخصيات الشيعية ومن بينها رئيس مجلس النواب "نبيه بري" ونائب رئيس "المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى" "الشيخ عبد الامير قبلان" والمرجع الإسلامي "السيد محمد حسين فضل الله" وعضو قيادة "حزب الله" "محمد رعد" وعضو شورى "حزب الله" "الشيخ محمد يزبك" والمسؤول عن الحزب في الجنوب "الشيخ نبيل قاووق" ومفتي "صور" و"جبل عامل" "السيد علي الامين."في هذه الفترة بالذات كان قد وردت تقارير عن سفر "عبد الكريم السعدي" (ابو محجن) وهو فلسطيني يقود جماعة "عصبة الانصار" القريبة من "جند الشام" والتي تنشط في المخيمات الفلسطينية في لبنان إلى العراق وإنضمامه إلى الزرقاوي.ما يجدر بالإشارة هنا أن شخصا يدعى "أبو عدس" قال انه ينتمي الى تنظيم يدعى "النصرة والجهاد" ادعى في شريط سلم ل"قناة الجزيرة" بعد حوالي ساعة من إغتيال رئيس الوزراء اللبناني الاسبق "رفيق الحريري" بانه هو الذي نفذ العملية الانتحارية التي قتل فيها الحريري يوم 14 شباط/ فبراير 2005.ما كشف عنه ضابط سوري منشق أدلى بمعلومات عن جريمة اغتيال الحريري بعد ذلك هو ان "أبو عدس" كان قد القي القبض عليه من قبل الإستخبارات السورية قبل ذلك وهو يحاول العبور من لبنان الى العراق عبر سوريا وتم ترتيب التسجيل له بإشراف "آصف شوكت" رئيس جهاز الإستخبارات العسكرية السورية والذي أصبح فيما بعد أحد

أبرز ستة مطلوبين من الأمم المتحدة من بين المسؤولين السوريين المتورطين في عملية إغتيال الحريري.
أهمية هذا كله،عدا كشفه عن الأخطبوط المخابراتي العجيب الذي يقف وراء الستار، تكمن في مدى إمكانية أن تنتقل عدوى الزرقاوي إلى البلدان الاخرى في المنطقة ذات التنوع المذهبي والديني الشديد.ولا يمكن أن يكون اختيار لبنان اعتباطيا فأسباب ذلك تكمن في التنوع الديني والمذهبي والطائفي لهذا البلد أضافة إلى الوضع الامني والسياسي الملتبس في ظل الازمة التي خلفتها عملية اغتيال الحريري في شباط /فبراير 2005.ولكن في ظل وجود مجموعات سلفية متشددة وتنظيمات إرهابية تم الكشف عنها ليس من الصعوبة تخيل امكانية ظهور نفس جرثومة العداء الطائفي الاعمى للشيعة في بلدان اخرى في المنطقة مثل السعودية والكويت والبحرين واليمن وغيرها طالما أن هناك أرضية خصبة لتلقي هذه الافكار وترويجها.ولعل ما كشف عنه وزير الداخلية المصري "حبيب العادلي" في حديث للتلفزيون المصري ليلة 26 تشرين أول/ اكتوبر 2005 من ضلوع جماعات سلفية مصرية في أحداث فتنة طائفية جرت الاسبوع السابق للحديث في مدينة "الاسكندرية" ما يؤكد على مخاطر هذه الاتجاهات الطائفية على النسيج الوطني لكل بلدان المنطقة.
وعموما فان مشروع الزرقاوي المعادي ضد الشيعة يسجل نقلة نوعية في مشروع حركة الإسلام الجهادي الذي رأى

منذ الثورة الإسلامية في ايران عام 1979 ان هناك إمكانية توافق بين الراديكالية السنية والراديكالية الشيعية على قاعدة المشروع الاسلامي المشترك.ما فعله الزرقاوي هو ليس فقط تأكيد نهاية شهر العسل القصير بل إعلان طلاق بائن بين التيارين حيث أنه تجرأ وأعلن تكفير الشيعة والجهاد ضدهم وهي ربما المرة الاولى منذ بزوغ الإسلام التي يحصل فيها ذلك.وكان ذلك بحد ذاته أمرا خطيرا لانه فتح المجال لإمكانية أن يقوم الزرقاوي بإعتباره ممثل الفرقة الناجية بتكفير أي طائفة أو مذهب إسلامي يمكن ان يختلف معه حتى ولو كان سنيا،ناهيك طبعا عن الصوفيين أو اتباع طوائف إسلامية اخرى مثل الدروز والعلويين وبعدهم اتباع الديانات الأخرى من مواطني الدول الإسلامية ذاتها.إن كل ذلك يعني أن النتيجة الحتمية لنجاح مشروع الزرقاوي هو نقل الصراع من صراع بين الإسلام والكفر العالمي،كما يراه هو وتياره،إلى صراع داخل الإسلام نفسه وعلى الإسلام ذاته وهي مؤشر خطير على ما يرمي إليه الزرقاوي من وراء مشروعه الجهادي.

ما يجدر الإشارة إليه هنا هو أن تكفير الزرقاوي للشيعة وحملات إجتثاثهم لم تجد تنديدا أو استهجانا من رفاقه في التنظيمات السلفية الاخرى.فمثلا،لم يصدر عن أسامة بن لادن ولا عن أيمن الظواهري ولا عن المقدسي ما يؤشر إلى خلافهم مع الزرقاوي في تكفير الشيعة،وهو موقف يتلاءم تماما مع مواقفهم العامة،حيث أن اختلافهم معه هو

خلاف سياسي وتكتيكي،كما هو واضح مثلا في الرسالة التي بعث بها الظواهري إلى الزرقاوي والتي وجدتها القوات الأمريكية في آحد المخابىء في العراق ونشرتها دائرة الاستخبارات الامريكية في 11 تشرين اول / اكتوبر 2005 لكنه ليس موقفا اخلاقيا على الاطلاق.في هذه الرسالة يتساءل الظواهري عن الحكمة في استهداف الشيعة ومساجدهم،حيث يرى أن العامة لن يفهموا ابدا سبب ومغزى ذلك،لكنه لا يقترب من إستنكارها مطلقا،بل يعبر فقط عن خوفه من أن يدب الانقسام بين مؤيد ومعارض لها.وهو الأمر نفسه الذي عبر عنه المقدسي في رسالة سبقت هذه.

وبدون ادنى شك فان ما يقوم به الزرقاوي يتعدى صداه ما يجري في العراق ذاته.فمثلا،أن استمرار الزرقاوي في حملة إجتثاث الشيعة العراقيين ستؤدي إلى نتائج كارثية اذا ما وصلت الامور إلى حد ستضطر فيه ايران الشيعية للتدخل لانقاذ شيعة العراق من التصفيات الطائفية المستمرة ضدهم.لقد فرض الزرقاوي على شيعة العراق تحديا كبيرا ستكون نتائجه وخيمة على كل المنطقة.حقا أن هذا التحدي قد أدى إلى نتيجة معاكسة حتى الان لما يريده ويخطط له الزرقاوي حيث تعمقت لديهم تلك المصاهرة التاريخية بين التشيع والوطنية العراقية في الوقت الذي عززوا فيه مكاسبهم السياسية مثلما اتضح من الإنتخابات التي جرت في نهاية كانون الثاني /يناير 2005 وفي

الإستفتاء على الدستور في 15 تشرين أول / اكتوبر 2005،الا أن ذلك لا يعني،بأي حال من الاحوال امكانية،عدم لجوئهم إلى طلب حماية ايرانية،اذا ما فشلت العملية السياسية وتدهورت الامور في العراق إلى حرب طائفية مدمرة،وشعر الشيعة حينئذ بان كيانهم ووجودهم أصبحا مهددين في الصميم،مما يعني تحولا هائلا في الوضع الجيبولتيكي في المنطقة سيقلب الموازين فيها رأسا على عقب بل ربما سيفككها على المستويات المذهبية والدينية والعرقية ويعيد تركيبها من جديد على نحو آخر.

هناك مخاطر أخرى متأتية من حملة الزرقاوي على شيعة العراق تتعدى تأثيراتها شيعة المنطقة لتصل إلى شيعة العالم قاطبة وإلى مجمل العلاقات المذهبية بين ملايين المسلمين.فحملة الزرقاوي ضد الشيعة لا توجه فقط ضربة إلى صميم مبدأ التآخي الاسلامي والوحدة الإسلامية بين 1,6 مليار مسلم بل انها وصفة أكيدة لإشعال نار الفتنة في منطقة تمتد من اندونيسيا غربا الى نيجيريا شرقا حيث يعيش السنة والشيعة فيها جنبا إلى جنب منذ قرون طويلة.واذا جاز التعبير،فان مساهمة الزرقاوي في هذا المجال هو انه نقل نظرية الفسطاطين التي روج لها بن لادن والظواهري إلى داخل العالمين العربي والإسلامي فأصبح هناك حسب اجتهاده فسطاط للسنة وآخر للشيعة وهو أشرس تعبير عن الصراع داخل الإسلام والأكثر خطورة على مستقبل الوحدة الإسلامية.

(8)

منذ اعلان الزرقاوي وجماعته عن تواجدهم ثم عن أهدافهم في العراق كان السؤال هو أية إستراتيجة عسكرية يمكن ان يتبعوها لتحقيق هذه الاهداف وما هي الامكانيات المادية والبشرية التي في حوزتهم والتي ستسمح لهم بقتال أكبر قوة عسكرية موجودة على سطح الأرض وماهي التكتيكات العملياتية التي سيتبعونها لإلحاق الهزيمة بها،كما

توعدوها،وكم من الوقت سيأخذ هذا الصراع؟من الطبيعي أن أية مجموعة،مهما كان عددها جاءت لتحارب في مثل هذا المكان وفي مثل هذه الظروف لا بد أن تكون قد أعدت عدتها مسبقا مهما كانت متواضعة وبسيطة أو حتى بدائية.وفي حالة جماعة الزرقاوي فان خبرتها التي اكتسبتها في افغانستان وتلك إلى حصلت عليها من داخل العراق قبل إندلاع الحرب واثنائها قد وفرت لها ما يكفي من الإمكانيات على الأقل لقدح الشرارة الأولى لمعركتها في وقت قصير بعد الحرب مباشرة بهدف منع تدشين العملية السياسية السلمية التي كان نجاحها المبكر سيحرمها من فرص الإنطلاق المبكر.

تعود الخبرة القتالية للمجموعة إلى أيام الجهاد الافغاني حيث تحفل ادبيات الحركات الجهادية بكتيبات ل"عبد الله عزام" تتعلق اغلبها بالبناء العقائدى والمعنوي للمجاهدين اشهرها "الهجرة والاعداد" و"في الجهاد اداب واحكام" ثم كتيبات لآخرين ذات طابع عسكري أبرزها كتاب "العمدة في اعداد العدة" الذي يعزى إلى "سيد امام شريف" وهو من قادة تنظيم "الجهاد الاسلامي" في مصر الذين شاركوا في الجهاد وكذلك كتابات "سيف العدل" الضابط السابق في الجيش المصري التي اصحبت من كلاسيكيات هذه الحركات وكذلك كتابات بعض الذين شاركوا في الجهاد في الشيشان مثل "أبو جعفر اليمني" المعروف باسم "أسد

الشيشان" وكذلك بعض المساهمات الاخرى لقادة تنظيم "القاعدة في جزيرة العرب."
ولعل من الكتابات المهمة في هذا المجال أيضا "موسوعة الجهاد الكبرى" والتي نشرت وزارة العدل الامريكية أجزاء منها في شهر حزيران / يونيو 2005 قالت إن محققين أمريكيين وبريطانيين عثروا عليها في منزل "أبو انس الليبي" والذي يعرف ايضا باسم "أنس السباعي" و"نزيه عبد الحميد الرغي" وهو أحد المتهمين في قضية تفجير سفارتي الولايات المتحدة في "كينيا" و"تنزانيا" عام 1998 والذي كان يقيم في مدينة "مانشستر" البريطانية قبل هروبه إلى افغانستان قبيل مداهمة منزله في المدينة البريطانية عام 1998.وتضم الموسوعة مئات الصفحات التي تحتوي على مواد مهمة في مجالات التدريب والقتال والأمن والإستخبارات وصنع المتفجرات وما تحتاجه عادة جماعات المقاومة المسلحة.وتقول أوساط الجهاديين إن الموسوعة كانت متوفرة لدى أعضاء القاعدة وغيرهم من الجهاديين في افغانستان قبل الحرب التي شنت على افغانستان في خريف عام 2001 وإن واضعيها اعتمدوا على الخبرة التي اكتسبوها على مدار10 سنوات من القتال ضد السوفيت.
تتكون الموسوعة من 18 فصلا تتناول العديد من القضايا التي يحتاجها المقاتلون في حرب العصابات مثل أساليب القتال وتصنيع القنابل المحلية بأدوات بسيطة وتصنيع

السموم والأسلحة البيولوجية وإستخدامها وتعذيب الضحايا وكيفية تعامل العناصر التي يجري اعتقالها مع المحققين.فمثلا،تشير الموسوعة في بابها الأول إلى أن المتفجرات تمثل السلاح الأكثر اماناً،لانها تمكن المقاتل من الفرار من العدو وتجنبه الاعتقال كما انها تلقي في نفس العدو الفزع والخوف.وفي باب آخر تحت عنوان "الاغتيالات عن طريق التسميم والسلاح الابيض" تشرح الموسوعة طرق القتل باستخدام السكاكين والحبال والمواد غير الحادة بل حتى عن طريق رش السوائل الكيماوية.

في أحد الدرس يتم شرح كيفية جمع المعلومات حول هدف محدد لإغتياله ابتداء من أسمه وعمره وعنوانه وعمله والطريق التي يسلكها وكيفية قضاء وقت فراغه والدكاكين التي يتردد عليها وطرق التسلل إلى بيته.كما تتعرض الموسوعة إلى كيفية ضرب وقتل الرهائن بالسكاكين والآلات الحادة وتشير إلى أن بعض علماء الدين قد اجازوا تعذيب الرهائن خاصة أولئك الذين يحجبون المعلومات والأخبار والأسرار.ويتناول باب خاص إرشادات عن المؤهلين للمشاركة في العمليات الخاصة مثل الرشاقة والحنكة والذكاء وهدوء الشخصية كما تؤكد الموسوعة على تفاصيل الإستعداد البدني والنفسي لمن يشارك في العمليات العسكرية.

وفي باب "الأمن والاستخبارات" يكتب معدو الموسوعة "إن الجماعة التي لا تقوم بدراسة أمنية لكل افرادها مرة

كل ستة اشهر من الناحية الاجتماعية والفكرية والأمنية محكوم عليها بالفشل والفناء." ووضعوا في هذا الباب 27 شرطا يجب أن تتوفر في رجل المخابرات وفق المنظور الجهادي أبرزها القدرة على التمييز بين الحقيقة والخيال وبين الضروري وغير الضروري من المعلومات،والطاعة العمياء للقائد،وتفادي كشف نفسه للناس بانه رجل أمن، وشدة الملاحظة لكل ما تقع عليه عيناه من المتغيرات.كما تتطرق إلى الحرب النفسية والإعلامية وتعطي دروسا في بث الأخبار المضللة.

وتحتوي الموسوعة على رسوم توضح كيفية تفجير الجسور وتعليمات حول قراءة الخرائط الطوبوغرافية وارشادات لكيفية تحديد المواقع عبر استخدام النجوم كما تشمل ارشادات التدريب على المتفجرات والتعرف على مختلف انواعها وصناعتها واستخدامها.كما تشمل خلط المواد الكيماوية وتحويل الديناميت إلى مسحوق لابطال مفعوله والتعرف على مختلف أنواع المتفجرات العسكرية مثل القنابل اليدوية والالغام (المضادة ضد الافراد،المضادة للدبابات، المضادة للشاحنات) والصواريخ.

وعلى قاعدة ما يجري في الكليات أو المدارس العسكرية لدى الجيوش المحترفة تنصح الموسوعة أن تكون فترة التدريب الأولية 15 يوما بينما تمتد الدورات التدريبية المتقدمة من 45 الى 60 يوماً.كما تقدم في هذا المجال

إرشادات بخصوص كيفية التخطيط وإدارة هذا النوع من الدورات التدريبية.
وتذهب بعض الادبيات الجهادية إلى إستذكار بعض المعارك المهمة في التاريخ الاسلامي حيث تحتل معركة "مؤتة" (629 ميلادية) مكانا بارزا في كتباتهم باعتبارها من المعارك المهمة في عهد الرسول فتشير إلى الخطة التي اتبعها "زيد بن حارثة" قائد جيش المسلمين عندما اختار موقع "مؤتة" وهي أضيق نقطة في منطقة القتال يقع بين جبلين وكانت رؤيته في ذلك أن التفوق العددي لجيش الروم البالغ 200,000 جندي مقابل 3000 جندي مسلم لا يمكن أن يحقق التوازن معه فاختار أن يحاصر العدو في "مؤتة" كي يجبرهم على منازلة جيش المسلمين بعدد يماثل عدد المسلمين.وبعد استشهاد زيد و"عبد الله بن رواحة" و"جعفر الطيار" الذين شاركوه القيادة تولى قيادة جيش المسلمين "خالد بن الوليد" الذي أدرك أن تحقيق نصر حاسم على الروم في ظل اختلال موازين القوى في المعركة لصالح الروم أمر مستحيل ويؤدي إلى فناء جنود المسلمين فوضع خطة محكمة لانسحاب جيش المسلمين نجح من خلالها في تأمين انسحاب آمن للجيش قبل أن يعيد الكرة بعد بضع سنوات لكي يعود وينتصر على الروم في معركة "اليرموك."دروس "مؤتة" التي يلهج بها الجهاديون تتلخص بانها مساهمات إسلامية في فنون

الحرب اكتسبها المسلمون الاوائل رغم امكانيتهم وخبرتهم المتواضعة أمام عدو كبير العدد والعدة.
على المستوى اللوجستي كان تنظيم الزرقاوي قد بنى قواعد عديدة في العراق حتى قبل أن تضع الحرب أوزارها بالتعاون والتنسيق مع قيادات من نظام صدام حسين التي هيأتها لمهمة مقاومة القوات الأمريكية للفترة التي تلي الحرب.واستنادا لمعلومات كشفت عنها عناصر في كلا الجانبين،الجهادي والبعثي،فان تلك القواعد توزعت على مناطق في كركوك وخاصة في الحويجة وفي الموصل ومنها تلعفر وبيجي وفي بعقوبة والرمادي والفلوجة والقائم،على الحدود السورية،وبغداد والمناطق القريبة منها والمحيطة بها،وخاصة اللطيفية وما جاورها إلى الغرب،والمدائن والصويرة إلى الجنوب،والراشدية والتاجي وسامراء الى الشمال، وخان بني سعد وبهرز والخالص الى الشرق.ولم يستثن ذلك التوزيع بعض المناطق الشيعية مثل الحلة والسماوة والبصرة،وحتى الكردية مثل اربيل والسليمانية.وتعتبر هذه شبكة واسعة بسبب امتدادها الجغرافي وتحتاج إلى الكثير من الإتصالات بغية تحقيق مستوى عال من التنسيق،مما يدل على درجة جيدة من التخطيط والتنفيذ والمتابعة توفرت بسبب التعاون بين المجموعتين.
في الفترة التي سبقت اعتقال صدام في كانون الاول / ديسمبر 2003 كان الرئيس المخلوع هو الذي يتولى توجيه

أنصاره بنفسه من مخبئه وعبر عناصر موثوق بها كان ابرزها ابن خاله "هاني طلفاح التكريتي" الذي عمل كضابط اتصال وتوجيه بين صدام وبين المقاومين العراقيين من بقايا "فدائي صدام" و"الحرس الخاص" وعناصر الاستخبارات السابقة والبعثيين والعناصر العراقية من الجماعات الإسلامية من جهة وبين المجاهدين العرب من المرتبطين بالزرقاوي من جهة ثانية.كانت المهمة الأولى لهم حسب توجيهات صدام هي تأمين اماكن الايواء في هذه المناطق والتي لم تكن بالعسيرة في المدن العربية السنية التي شكلت حاضنة المقاومة ضد الأمريكان لأسباب تتعلق بقناعات السنة بانهم الطرف الخاسر من نتيجة الاوضاع التي استجدت في العراق بعد سقوط نظام صدام.في هذه المناطق تحولت دور سكنية ومزارع خاصة إلى أماكن أمنة للعناصر الجهادية العربية،سواء تلك التي تواجدت في العراق قبل الحرب،أو انها بدأت بالتقاطر عليه لاحقا.في الفترة التي تلت سقوط النظام في التاسع من نيسان / ابريل/ 2003 وفي شهر آب/أغسطس من العام نفسه تم بناء شبكة محكمة من العلاقات بين الطرفين تم بموجبها تقسيم العمل بين الجماعتين البعثية والجهادية ووضع ترتيبات خاصة للتنسيق وللتعاون في مناطق العمليات قبل أن تتمكن مجموعة الزرقاوي من تحقيق درجة من الإستقلالية التي جاءت نتيجة تدفق المدد البشري والمادي من الخارج.

ولم تمض الا اسابيع قليلة حتى كانت مجموعة الزرقاوي التي بدأت تطلق على نفسها اسم تنظيم "التوحيد والجهاد" قد اقامت هيكلية تنتظيمية على غرار باقي التنظيمات الجهادية السلفية حيث اصبح للتنظيم أمير عام،وهو الزرقاوي نفسه،بينما شكلت لجان شرعية وعسكرية وامنية ومالية وإعلامية تتولى مختلف شؤون المجموعة.وفي وقت لاحق تم تعيين امراء على المناطق المختلفة،ربما وصل عددهم بعد عدة أشهر إلى عشرة كانوا يتولون التخطيط والتنفيذ وقيادة المجموعات في مختلف المدن ومنها بغداد التي كان أميرها "عمر بيزاني" والذي تمكنت قوات الأمن العراقية من اعتقاله في شهر آيار / مايو 2005 قد أدلى،مثلما أدلى مساعدين اخرين للزرقاوي تم اعتقالهم،ببعض الاعترافات عن التنظيم وهيكليته وارتباطاته القت الكثير من الضوء عليه.وكان جزء من التنظيم الذي اقامته عناصر الارتباط المقيمة في الخارج وخاصة في دول الجوار والتي تهتم بشؤون التجنيد وايصال المتطوعين والأموال التي تأتي من الخارج وتدير الصلات مع التنظيمات الجهادية السلفية الاخرى مثل "القاعدة" عن طريق عناصرها المتواجدة في ايران و"جند الشام" في سوريا و"اسود الجزيرة" في الكويت وتنظيم "القاعدة في جزيرة العرب" في السعودية وتنظيم "التوحيد" في الاردن.

لم تتوفر أية معلومات دقيقة عن عدد العناصر التي انضمت إلى تنظيم الزرقاوي منذ بدأ عمله داخل العراق لأسباب،بعضها ناتج عن صعوبة الحصول عليها،إضافة إلى أن هذه الأعداد كانت عرضة للتغير لأسباب تتعلق بمقتل العديد منها سواء من خلال العمليات الانتحارية التي قاموا بها أو تلك التي سقطت في القتال وخاصة في معركتي الفلوجة في نيسان /ابريل وتشرين الثاني /نوفمبر 2004 أو بسبب مغادرة البعض منها وتركهم الجهاد في صفوف الجماعة لأسباب شتى وعودتهم إلى بلدانهم.في بعض المراحل قدمت القيادات العسكرية الامريكية تقديرات مختلفة عما سمتهم بالمقاتلين الأجانب،لكنها ظلت تقديرات جزافية ولا تستند إلى معلومات إستخباراتيه دقيقة،ثم أنها كانت تتكلم عن المقاتلين الأجانب الذين ربما كانوا انضموا إلى جماعات مسلحة اخرى.ما قدمه بعض الذين تم اعتقالهم من اعضاء المجموعة من معلومات وأخرى تم استقصاؤها من متابعات مقربين من الجهاديين في المنطقة والأجهزة الأمنية ومحللين متابعين قدرت العدد في فترات ما بين 3500 إلى 6000 شخص من مختلف الجنسيات العربية والأجنبية.

في السعودية وحدها أشار باحثون سعوديون متخصصون في شؤون الجماعات الارهابية إلى أن حوالي 2500 سعودي تم تسجيلهم اختفائهم في مراكز الشرطة حتى منتصف عام 2005 في منطقة "القصيم" وحدها حيث

يعتقد أهلهم أنهم ربما سافروا إلى العراق وانضموا إلى المجاهديين.وخلال الفترة التي تلت الحرب على العراق وسقوط صدام لم تتوقف الصحف السعودية عن نشر التقارير الصحفية أو الأخبار أو التعازي بموت سعودين في العراق اثناء مشاركتهم في الجهاد هناك.

ولعل إعلان الزرقاي نفسه يوم 23 حزيران/ يونيو 2005 عن مقتل "عبد الله الرشود" المتطرف السعودي المدرج على قائمة وزارة الداخلية السعودية لأكثر الارهابيين خطورة ومفتي جماعة "القاعدة في جزيرة العرب" في معارك القائم التي جرت في الأيام السابقة للإعلان يكشف عن مدى تورط المتطرفين السعوديين في القتال في العراق.اما أجهزة الأمن الاردنية فقد قدرت عدد افراد "تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين" الذي ينشط في العراق في شهر تموز/ يوليو 2005 بنحو خمسة آلاف عنصر من بينهم نحو 300 اردني ونحو الف بين سعودي ويمني وأعداد أخرى من السوريين والمصريين واليمنيين والليبيين والمغاربة.

وفي هذا الإطار فقد كشفت جهات جهادية وكذلك التحقيقات التي أجرتها مخابرات غربية عن أن البعض من المتطوعين جاء من بين الجاليات الاسلامية في أوربا مثلما كشف مقتل "عبد الحكيم الجرتيلي" الملقب "أبو حفص الليبي" والذي كان لاجئا سياسيا في ايرلندا قبل ذهابه إلى العراق في منتصف عام 2004 ومقتله هناك بعد شهور

قليلة.وفي 15 حزيران / يونيو 2005 كشفت الشرطة الاسبانية معلومات مهمة عن شبكات تنتمي إلى مجموعة "انصار الاسلام" المرتبطة بالزرقاوي والاشتباه في تحضيرهم لنشاطات إرهابية وعمليات انتحارية في أسبانيا وارتباطهم بعلاقة مع منفذي تفجيرات قطارات مدريد في 11 آذار /مارس 2004.وكشف وزير الداخلية الاسباني "خوسيه انطونيو آلونسو" أن المعتقلين ومعظمهم من المغاربة والجزائريين استخدموا البلاد كقاعدة لتجنيد مجاهدين وإرسالهم إلى العراق في سبيل تنفيذ عمليات انتحارية.وذكرت أجهزة الأمن الاسبانية إن النواة الرئيسية للمجموعة موجودة في سورية حيث يتولى بعضهم مهمة التجنيد ويشرف آخرون على عملية تمويل الانتقال إلى العراق وترتبط مع مجموعات أخرى في بريطانيا والمغرب ودول شرق أوسطية.ونوهت الشرطة الاسبانية بالتعاون السوري الذي قالت انه شكل عاملاً حاسماً في الاعتقالات التي طالت زعيمي التنظيم "محسن خيبر" الملقب "عبد المجيد الليبي" و"عبد الحي أساس" الملقب "عبد الله" اللذين أشرفا من دمشق على عمليات التنسيق بين المجموعات التابعة لتنظيم القاعدة في العراق في كل بلدان العالم وبينها أسبانيا وذلك من خلال اتصالات عبر الانترنيت.

ومن الواضح إن سوريا لعبت دورا كبيرا في دعم عموم حركات التمرد والعنف في العراق منذ سقوط نظام صدام

ومن بينها تنظيم القاعدة بقيادة الزرقاوي حيث أكدت معلومات من جهات إستخبارية غربية عن وجود بنية تحتية للتنظيم في الأراضي السورية هدفه استقبال المتطوعين الذين يصلون من مختلف اطراف العالم للمشاركة في العمليات الارهابية في العراق وتدريبهم وترتيب أوضاعهم قبل عبورهم الحدود إلى العراق.وتعتبر العاصمة السورية ومدن اخرى مثل "حلب" و"حمص" و"الحسكة" و"دير الزور" محطات رئيسية يعبر منها كل المتطوعين للعراق.وكانت السلطات البريطانية قد كشفت،مثلا،عن وجود شبكة في مدينة "مانشستر" شمال "انكلترا" على علاقة بعمليات انتحارية في العراق كما كشفت عن شبكات مالية تساهم في تمويل الجماعات عبر سوريا.وكشفت سلطات الأمن البريطانية ان سلسلة من العمليات التي نفذت ضد القوات الأمريكية والقوات المتحالفة معها في العراق كانت من تدبير اشخاص يقيمون في بريطانيا وصلوا للعراق عبر سوريا.وكشفت هذه السلطات أيضا ان المتطوعين الذين يرحلون إلى العراق عبر سوريا يجدون الدعم الكامل والمساعدة لتأمين نقلهم لداخل العراق حيث يقيمون في مساكن آمنة وتؤخذ منهم اوراقهم الثبوتية وتستبدل بهويات مزورة قبل عبورهم الحدود.وتحتوي مواقع على الانترتيت على معلومات بكل ما يتعلق بالانتقال إلى سوريا والمناطق التي يتواجد فيها المقاتلون داخل الحدود العراقية الذين يساعدون في عملية

التهريب وكذلك أخبار عن أمتكن تواجد القوات الأمريكية قرب الحدود مع سوريا.
وكان السفير السوري لدى الامم المتحدة "فيصل مقداد" قد ذكر في مقابلة مع "وكالة أنباء الاسوشيتدبريس" في 26 آيار /مايو 2005 بان السلطات في بلاده اعتقلت 1500 شخصا كانوا يحاولون العبور إلى العراق للإنضمام إلى مجموعات المجاهدين وسلمتهم إلى بلدانهم.وفي مناسبات عديدة اخرى كشف المسؤولون السوريون عن اعتقال أعداد كبيرة اخرى من هؤلاء المتطرفين وعن ترحيل العديد منهم إلى بلدانهم كما أنهم أعلنوا عدة مرات عن اشتباكات وقعت بين قوات الأمن السورية ومتطرفين إسلاميين تسللوا إلى سوريا.هذه البيانات الرسمية بدت محاولات لدفع الاتهامات عن سوريا وتأكيد انها أيضا ضحية للإرهاب وانها تعمل كل ما في وسعها لوقف التسلل الى العراق.فالمعلومات التي كشف عنها مسؤولون عراقيون وامريكيون بعد صدور التصريحات السورية وفي وقت اشتدت فيه الهجمات وخاصة بالسيارات الانتحارية التي سبقت عملية صياغة الدستور الدائم والتصويت عليه أكدت على أن سوريا ابقت ثلاثة منافذ لكي يتسرب منها الارهابيون عبر أراضها إلى العراق هي أولا طريق "ربيعة" شمالا ومنها الى منطقة "البعاج" في الموصل مرورا ب"تلعفر" و"بيجي "و"الحويجة" و"الضلوعية" وصولا إلى بغداد.اما الخط الثاني فهو خط

"القائم" مرورا ب"حصيبة" و"العبيدي" و"الرمانة" و"راوة" وهي المناطق التي دائما ما أعتبرت محطات رئيسية للوصول إلى الفلوجة ومن ثم الإتجاه عبر ثلاثة محاور هي "أبو غريب" و"سبع البور" و"التاجي" و"الشعلة" وبعد ذلك الوصول الى مناطق ما يدعى بمثلث الموت المتمثل ب"اليوسفية" و"اللطيفية" و"المحمودية."اما الخط الثالث لتسلل الارهابيين فهو "معبر الوليد" الحدودي ومن ثم عبر الطرق الصحراوية إلى مناطق "الرمادي" ومن ثم إلى "بغداد" وهو الطريق الذي عادة ما تسلكه السيارات المفخخة الآتية من سوريا.

وبالطبع فان أعدادا كبيرة من العراقيين ربما زاد عددهم على العرب والاجانب انضموا للجماعة لاهداف متباينة بعضها دينية أو مذهبية أو مادية وغيرها.وطوال السنتين الاوليتين اللتين نشط فيها التنظيم اقتصر نشاط العراقيين والذي سماهم التنظيم بالانصار اسوة بانصار المدينة الذين ناصروا النبي محمد والمهاجرين معه من مكة على مختلف أنواع العمليات اللوجستية والاستخباراتية والقتالية،الا أنهم لم يقوموا بعمليات انتحارية حيث اقتصر تنفيذها على المتطوعين العرب القادمين من الخارج وهو أمر من المؤكد ان له دلالة كبيرة في مجمل عمل وبرنامج السلفيين الجهاديين في العراق.هذا الأمر تغير حين أصدر تنظيم الزرقاوي بيانا يوم 21 حزيران / يونيو 2005 أعلن فيه تشكيل "فصيل الانصار" التابع ل"كتيبة البراء بن مالك

الاستشهادية" والذي قال أن العشرات من العراقيين هرعوا لتسجيل أسمائهم فيه يتسابقون فيه للقاء ربهم.ليس من العسير تفسير ظاهرة إحجام العراقيين عن الإنضمام إلى الانتحاريين فالشواهد المتوفرة أن العراقيين من السنة العرب الذين قاوموا العملية السياسية بمختلف اتجاهاتهم لم يكونوا ينظرون إلى المتطوعين العرب سوى كونهم مرتزقة،أو في أحسن الأحوال،آدوات نافعة في المقاومة التي يشنونها ولكنهم،او على الاقل الاغلبية الساحقة منهم،لم يبدوا استعدادا للقبول بالمشروع السلفي الجهادي الذي لا يلبي اهدافهم كما أن ترددهم في القيام بعمليات انتحارية يوضح تدني درجة الدوغمائية التي يعبر عنها الجهاديون بروح الاستشهاد لديهم.ومع ذلك فمن الملاحظ أن تنظيم الزرقاوي نجح في تجنيد العديد من العراقيين بالقيام بعمليات الذبح والتي أقر العديد منهم بعد اعتقالهم انهم قاموا بها ليس اقتناعا بل لقاء مبالغ نقدية لم تزد احيانا عن عشرين دولار،وهي مسألة بالغة الدلالة توضح أن شركاءه من العراقيين لم يكونوا الا من القلة التي هي على استعداد للقتل حتى بأبشع اشكاله لكنهم مع ذلك لم يكونوا على إستعداد للانتحار في سبيل أية قضية،وهو ربما مؤشر على الطابع البرغماتي وليس الاديولوجي للتعاون بين الطرفيين.

ومن بين الذين عملوا مع الزرقاوي ضباط كبار في الجيش العراقي المنحل.فقد ذكر بيان حكومي عراقي يوم 15

حزيران / يونيو 2005 اعتقال "عبد داود سليمان" اللواء السابق في الجيش العراقي المنحل والذي كان يعمل مستشارا عسكريا للزرقاوي قبل اعتقاله في نفس اليوم في الخالدية بالقرب من الفلوجة،وهو الأمر الذي يكشف عن العلاقة الوثيقة بين الجانبين والتكامل التام بينهما.والمعروف عن سليمان أنه كان مسؤولا عن تنظيمات "جيش محمد" الذي ينشط في مدن محافظة "الأنبار" والذي كشف بيان باسم "افواج المقاتلين المجاهدين في الجيش العراقي" نشرته جريدة "الحياة" اللندنية في 22 أيلول/ سبتمبر 2005 أن صدام هو الذي شكله قبل اعتقاله في اجتماع عقده في الرمادي بعد أسابيع من سقوط نظامه مع بعض كبار مساعديه وأنصاره وبعض شيوخ العشائر وضم اليه بعثيين وضباطا وجنود من قوات الحرس الجمهوري المنحل.

ومع ذلك فالملاحظ أن أعداد المتطوعين العرب في العراق كان ضئيلا جدا مقارنة بعددهم في افغانستان مثلا على الرغم من عوامل مساعدة كثيرة وخاصة الجو النفسي والسياسي التعبوي الملائم الذي ساد في المنطقة ضد الأمريكان وضد الحكومة العراقية المؤقتة والتسهيلات التي قدمتها بعض الحكومات وغضها الطرف عن تدفق المقاتلين عبر حدودها.وحتى بعد مرور أكثر من عامين ونصف على بدء عمله في العراق وفي ضوء المشروع الجهادي الكبير الذي حلم به وجماعته في تنفيذه في العراق

أولا ومن ثم الانطلاق به إلى باقي المنطقة،فقد عجز الزرقاوي في تجنيد أعداد كبيرة من الشباب المسلم وضمهم اليه،مما شكل فشلا ذريعا لإستراتيجيته وهدفه في تحويل العراق إلى قاعدة الجهاد العالمي التي يرمي إلى بنائها هناك.

مثل التمويل عنصرا مهما في عمل الجماعة حيث أن وجودها في العراق ظل مكلفا من الناحية المادية لأسباب بعضها يتعلق بارتفاع كلفة المعيشة منذ سقوط نظام صدام حسين والحاجة لتغطية التكاليف المختلفة ومنها شراء ولاء العراقيين المتعاونيين معهم أو سكوتهم خاصة وان الولايات المتحدة الأمريكية وضعت جائزة قدرها 25 مليون دولار لمن يسلمها الزرقاوي نفسه.وفي الكثير من الحالات كان التنظيم يدفع مبالغ هائلة اما للحصول على معلومات ضرورية لتنفيذ العمليات كما كشف النقاب عن ذلك في التحقيقات الخاصة بعملية الهجوم على مقر الامم المتحدة وغيرها من الهجمات أو أن الدفع يتم لشراء مختطفين من عصابات إجرامية عادية كانت تقوم بعملية الإختطاف وتبيعهم للتنظيمات الكبيرة.ولم يظهر أن هناك مشاكل في التمويل حيث كشفت الجهات الأمنية العراقية اثناء "عملية البرق" التي قامت بها في بغداد في نهاية آيار /مايو 2005 عن عثورها على مبلغ 6 ملايين دولار في احدى المخابىء العائدة للجماعة.

وحسب معلومات العديد من المصادر المعنية وشهادات تم الاستماع اليها في العديد من الرحلات إلى البلدان المجاورة فان مبالغ طائلة استمرت بالتدفق إلى جماعة أبو مصعب وجماعات اخرى عبر وسائل عديدة،منها تبرعات جمعها مشايخ وخاصة في السعودية وفي دول الخليج كانت تسلم في الاردن وفي سوريا ويتم نقلها عبر وسطاء الى العراق.وفي حادثة أشارت اليها صحيفة "الرأي" الاردنية يوم 16 أيلول /سبتمبر 2004 فان السلطات الاردنية حققت مع شخص يدعى "منصور الحياري" كان يقود شبكة تمويل للزرقاوي في الاردن تجمع بعضه من تبرعات في المساجد ثم تنقل الاموال بعد ذلك إلى العراق.وعدا الشيخ اليمني "محمد المؤيد" الذي اتهم بتمويل بن لادن والقاعدة والذي اعتقل في ألمانيا لم يسمع أن شيوخا كبارا أو منظمي تبرعات وردت اسماؤهم مرات عديدة في التحقيقات الدولية واجهوا أي مشاكل مع حكوماتهم في الوقت الذي كانت هذه الحكومات قد وعدت بتجفيف كل منابع الارهاب المادية ووقعت على اتفاقيات دولية لهذا الغرض.ومن مصادر التمويل المهمة أيضا تبرعات سخية قدمها رجال أعمال عراقيون في الداخل وفي الخارج وبشكل منتظم،اما برغبة منهم أو لانهم خضعوا للإبتزاز والتهديد،حيث تعرض من لم يدفع منهم إلى عمليات اختطاف وقتل أو هجمات استهدفت منازلهم أو منشئات عائدة لهم أو لاقربائهم.

من ناحية التسليح لم يكن أمام الجماعة أية مشكلة بل أن ما توفر من سلاح وعتاد في العراق بعد سقوط النظام وفر امكانية تسليح تجهيز جيوش لدول وليس فقط تنظيمات ارهابية سرية.فقد أدى انهيار الجيش العراقي السريع وتركه لمواقعه اثناء الحرب ومن ثم القرار الذي اتخذته إدارة الإحتلال بحل الجيش إلى سقوط مقراته ومعسكراته ومستودعاته بيد آيادي العبث التي سرعان ما قامت بنهب كل ما تستطيع نقله ولم ينج من ذلك كل انواع الاسلحة الخفيفة والمتوسطة والتي نقلت الى البيوت والمزارع والبساتين حيث تم الحفاظ عليها بانتظار الآتي.ويقدر الخبراء وجود حوالي 120 معسكرا للجيش اضافة إلى مستودعات للذخيرة كانت تحت سيطرة ستة فيالق للجيش والحرس الجمهوري والحرس الخاص تم نهبها جميعا في الايام التالية لانتهاء الحرب.واستنادا إلى افادات أدلى بها أعضاء في مجموعات التمرد المختلفة فان حوالي 2500 مكمن للأسلحة والذخيرة كانت تحت سيطرة هذه الجماعات ومنها تنظيم الزرقاوي في مختلف المناطق التي تنشط فيها تمدها بما تحتاجه في العمليات التي تقوم بها.ومن أكثر الحوادث التي أثارت الانتباه إلى ذلك الخطأ الجسيم الذي ارتكبته قوات الاحتلال بتركها المواقع العسكرية دون حراسة ومراقبة كان اختفاء 780 طنا من المتفجرات من موقع "القعقاع" جنوب غربي بغداد بعد انتهاء الحرب وهي كمية كافية لوحدها للقيام بالاف التفجيرات.كانت

وفرة الاسلحة والذخائر والمتفجرات من الكثرة بحيث بدأ ارسال كميات كبيرة منها إلى الجماعات المتعاونة في دول مجاورة وخاصة إلى الاردن والسعودية والكويت.
لا يعرف عن الزرقاوي كونه خبيرا عسكريا فكل معلوماته العسكرية تعود إلى فترة الخدمة الالزامية التي أداها كجندي في الجيش الاردني بين عامي 1984 و1986 والى ما اكتسبه من خبرات في معسكرات افغانستان وهي خبرات لاتؤهله بأي حال من الاحوال لكي يلعب دور الجنرال ووضع خطط عسكرية محكمة لمواجهة أكبر قوة عسكرية في العالم.ومن المؤكد ان ضباطا في الجيش العراقي المنحل قد ساعدوه في وضع الخطط اللازمة وهيأوا له الامكانات المطلوبة لتنفيذها.ومنذ البداية كان واضحا ان الإستراتيجية التي لجأ اليها الزرقاوي هي تلك التي عادة ما تلجأ اليها تنظيمات شبيهة،وهي شن حرب عصابات وحرب مدن ضد قوات نظامية كبيرة وهي إستراتيجية تنطوي على أهداف عسكرية وسياسية في آن واحد.فمن الناحية العسكرية تتجنب هذه الانواع من الحروب المواجهات المباشرة والمكلفة،وتقوم بدلا من ذلك بعمليات كر وفر هدفها استنزاف الخصم وشل قدراته في الحركة والمباغتة ووضعه في مواضع دفاعية على طول الوقت.اما من الناحية السياسية فترمي هذه الإستراتيجة إلى إفشال البدائل السياسية المطروحة عبر اظهار عجز الطرف الآخر عن توفير الدعم الشعبي اللازم لها وتقويض

مصداقيته واجباره على القبول بالخيار الذي تطرحه المجموعات المسلحة.
من الناحية التنظمية لجأت مجموعة الزرقاوي إلى تنظيم نفسها حسب ظروف عملها في كل منطقة من مناطق المثلث العربي السني حيث قسمت نفسها إلى تسع مجموعات تتمتع ببعض الاستقلالية في تخطيط وتنفيذ العمليات.فبينما كان وجودها مكثفا وشبه علني بل وطاغ أحيانا كما في "الفلوجة" وفي "الرمادي" و"سامراء" حيث كانت المجموعات تتكون من عشرين أو ثلاثين شخصا فقد لجأت إلى تشكيل مجموعات صغيرة بين 5-6 أشخاص في المدن الكبيرة الاخرى مثل "بغداد" و"بعقوبة" و"الموصل" حيث يتيح لها في الحالة الاولى القيام بعمليات مواجهة في إطار أوسع أو نصب الكمائن ومن ثم الاختفاء تحت حماية من السكان المحليين،اما في الحالة الثانية فتتيح لها مرونة على العمل وخاصة في عمليات السيارات المفخخة والهجمات الانتحارية والاختطاف.وبشكل عام،فأنها عدا مناطق تجمعها على الحدود قبل الانتقال إلى الداخل فان مجموعة الزرقاوي ظلت تتجنب التواجد أو التمركز بشكل تجمعات كبيرة خشية أن تكون هدفا لاصطيادها من قبل الطائرات الأمريكية أو تعرضها لحملات واسعة غير قادرة على مواجهتها،كما أتضح من عدة هجمات شنت عليها في "القائم" و"راوة" وباقي مناطق الفرات الأعلى وكذلك في "تلعفر."

وبسبب تواجد تنظيم الزرقاوي في منطقة جغرافية واسعة تنشط فيها أيضا جماعات اخرى فقد كان لابد من وجود تعاون وتنسيق على مستوى عال بين تنظيم الزرقاوي وباقي المجموعات،وخاصة الكبرى منها،على الرغم من اختلافات أساسية في استراتيجة كل جماعة وأهدافها.كان التنسيق على أشده مع جماعات مثل "أنصار السنة" التي ولدت من تنظيم "انصار الاسلام" الكردي والذي يلتقي مع الزرقاوي في منهجه السلفي وفي علاقاته القديمة مع تنظيم القاعدة.وفي نفس الوقت اقام الزرقاوي علاقات وثيقة مع المجموعات البعثية ك"الجيش الاسلامي" و"كتائب المجاهدين" و"كتائب ثورة العشرين" و"جيش محمد" و"كتائب الفاروق" و"كتائب علي بن ابي طالب" كما اقام علاقات مع جماعات إجرامية تخصصت في الخطف والقتل والسلب والإغتصاب والتي ساعدته في إثارة أجواء الرعب بين العراقيين.ولكن التنسيق لم يكن يعني تطابقا في اختيار الأهداف أو في التوقيت أو في النتائج المرجوة من العمليات حيث ظهرت في مرات عديدة وخاصة في عمليات استهداف الشيعة خلافات بين الزرقاوي وباقي المجموعات بشأن عمليات قام بها تنظيمه ولكنها لم تلقى تأييدا من المجموعات العراقية التي وجدت ان هذه العمليات تشكل احراجا لها وخروجا عن خطابها السياسي.
اما من الناحية العملياتية فقد تجنبت جماعة الزرقاوي منذ بداية عملها القيام بمواجهات تعرضية وجها لوجه مع

القوات الأمريكية أو العراقية الا في مرات نادرة ولأسباب دعائية هدفها رفع المعنويات بين انصارها وأختارت بدلا من ذلك أساليب تفجير العبوات الناسفة في القوافل الأمريكية أو اطلاق قذائف الهاون أو الصواريخ الصغيرة المدى ضد مراكز تحشدهم.اما ضد الشيعة،وهم الذين أعلنت الجماعة الحرب الشاملة عليهم كهدف رئيسي لجهادها في العراق،فقد لجأت إلى أساليب السيارات المفخخة أو ارسال الانتحاريين المحملين بالأحزمة الناسفة إلى مراكز تجمعهم مثلما لجأت إلى قتلهم ذبحا بعد اختطافهم وكل ذلك بهدف بث الرعب في صفوفهم ودفعهم إلى التخلي عن المشروع السياسي الذي يدعمونه بقوة.كما ولجأت إلى خطف الاجانب وذبحهم كجزء من الإستراتيجية السياسية التي هدفها إثارة الرأي العام العالمي وبالذات في بلدان المختطفين ضد الاحتلال.

وبشكل عام فان الهجمات الارهابية التي شنها الزرقاوي كانت ترمي منذ البداية إلى إحداث فوضى عارمة في العراق تستهدف بدورها منع أي خطوة يمكن أن تؤدي إلى إعادة بناء الدولة العراقية ومنع انطلاق عملية سياسية وطنية شاملة تضم كافة مكونات الشعب العراقي.فضرب القوات الأمريكية يهدف إلى زيادة خسائرها البشرية وبالتالي دفع الرأي العام الأمريكي إلى الضغط على حكومته للتعجيل بسحب القوات من العراق.وضرب السفارات والمنظمات الدولية وقتل الدبلوماسيين واختطافهم

كان يهدف إلى ترهيب البعثات الدبلوماسية وإجبارها على الانسحاب من العراق بغية عزل الحكومة العراقية عن محيطها الاقليمي والدولي.كما أن ضرب الفنادق التي كانت تستقبل وفودا ورجال أعمال اجانب كان يستهدف تعطيل عملية إعادة البناء،وكلها عمليات تصب لمصلحة الابقاء على الفوضى.اما استهداف افراد الشرطة والجيش سواء بالسيارات المفخخة أو الكمائن على الطرق وذبحهم وكذلك عمليات القتل الفردي فكلها كانت جزءا من عملية إفشال أي إمكانية لتحقيق الأمن والاستقرار بينما كان استهداف المساجد أو مراكز التجمع الشيعية يلبي مخططات إحداث الفتنة الطائفية وجر البلاد إلى حرب أهلية اعتقد الزرقاوي انها ستؤدي إلى انسحاب القوات الأمريكية وبالتالي إحكام سيطرته عليه.ولم يقتصر إرهاب الزرقاوي على أعداءه المعلنين بل أنه أستهدف أيضا قيادات سنية أبدت استعدادا للمشاركة في العملية السياسية بهدف ردعها عن ذلك وفي أية خطوات ترمي إلى إدماج السنة العرب في العملية على الرغم من خطواته في هذا المجال كانت محسوبة بهدف عدم استعداء الحاضنة السنية التي لجأ إلى حمايتها.

منحت الهجمات الإرهابية المتعددة التي شنتها جماعة الزرقاوي وخاصة تلك التي استهدفت القوات العراقية الوليدة ومراكز التجنيد إضافة إلى تلك التي استهدفت فيها الشيعة إحساسا مفرطا بالنجاح مما أدى في ربيع عام 2004 إلى محاولات توسيع نشاطها والإسراع إلى محاولة

فرض هيمنتها على بعض المدن السنية وخاصة تلك التي نجحوا في ايجاد موطىء قدم فيها مثل "الفلوجة" و"سامراء."ففي "الفلوجة" مثلا،أضحت جماعة الزرقاوي التي كان تحت قيادتها حوالي 1200 مقاتل من العرب والعراقيين القوة التي تتحكم في المدينة والتي منعت السلطات المحلية من القيام بواجباتها مما أدى في الواقع إلى عزلها عن سلطة المركز في العاصمة "بغداد" وهو الأمر الذي أصبح يثير قلق القيادات الأمريكية من امكانية امتداد ذلك إلى باقي مدن المثلث السني.

ليس من الواضح ما هو الهدف الإستراتيجي لدى الزرقاوي للسيطرة على المدن السنية وتحويلها إلى قلاع للسلفية الجهادية فمثل هذه الخطوة لا يمكنها الا أن تعزز الانطباع الأولي برغبة الزرقاوي إقامة إمارة أو كيان مستقل ربما يكون الخطوة الأولى أو المنطلق لمشروعه الأوسع لتحويل العراق كله بعد ذلك إلى مثل هذا الكيان.هذا الهدف مهما تبجح به الجهاديون أكثر من طوباوي ولا يمكن تحقيقه تحت أية ظروف عسكرية أو سياسية لكن ذكره في بيانات الزرقاوي ومجموعته يخدم غاية دعائية بحتة تنسجم مع خطابهم الجهادي كما يداعبون به عواطف مساندیهم.لكن ربما كانت أهداف الزرقاوي أكثر بساطة من ذلك،وهي تنحصر في جر القوات الامريكية إلى معارك مباشرة مع جماعته يضرب بها عدة عصافير بحجر واحد.فالهدف الأول هو إظهار قوته باعتباره يخوض حربا

فعلية وجها لوجه مع الأمريكان مما سيكسبه شعبية كبيرة في الأوساط السنية العراقية بداية ثم في الأوساط المتعاطفة في العالم الإسلامي.اما الهدف الثاني فكان استخدام النتائج المترتبة للمواجهات العسكرية مع الامريكان في تحريض العالم الاسلامي ضدهم.ومن المؤكد ان هدفه الأخر هو إظهار الشيعة،عبر اتهام قوات الجيش والشرطة،كونهم متواطئين مع الأمريكان في الهجمات التي يشنونها لتحرير هذه المدن وهو ما يخدم مشروعه الأساسي في تحريض السنة ضد الشيعة.

في الأسبوع الاول من شهر نيسان / ابريل 2004 بدأت "وحدة المارينز الاستطلاعية الأولى" حصارا ل"لفلوجة" بعد قيام مجموعة الزرقاوي يوم 31 أذار /مارس 2004 بالهجوم على سيارة تحمل عددا من المهندسين الأمريكيين في المدينة حيث قامت بعد قتلهم بالتمثيل بجثثهم وتعليقها على أعمدة جسر المدينة.كانت هذه هي الشرارة الأولى لما أصبح يسمى فيما بعد ب"معركة الفلوجة الاولى" حيث أمر الرئيس "جورج بوش" وحدة المارينز بالقيام بمحاصرة "الفلوجة" والمطالبة بتسليمها قتلة الامريكيين الاربعة.منعت القوات الامريكية من اقتحام المدينة بعدما قدم "اياد علاوي" رئيس الوزراء الانتقالي حينذاك عرضا للحل السياسي يقوم على شقين؛الأول إقناع البعثيين في الفلوجة في تولي السلطة في المدينة والشق الثاني تقديم

حوافز مادية من خلال ضخ اموال هائلة بهدف إعادة اعمار البيوت التي تدمرت.
فشلت تلك الخطة فشلا ذريعا حين انهار اتفاق الهدنة وأجبر المحافظ البعثي المعين اللواء "محمد لطيف" على الهروب إلى "بغداد" وترك السيطرة مرة ثانية للجماعات المسلحة وخاصة مجموعة الزرقاوي التي اعتبرت النتيجة انتصارا لها بعد أن إزداد نفوذها وقامت بفرض سلطتها الخاصة ومنها،مثلا، المحاكم الشرعية مما حول "الفلوجة" إلى قلعة حصينة للتمرد والعصيان على الحكومة العراقية المؤقتة التي كانت تجهد في محاولة اقناع الاطراف السنية في الاندماج بالعملية السياسية.وشبه "أبو انس الشامي" (الاردني عمر يوسف جمعة) المسؤول الشرعي في جماعة الزرقاوي،قبل أن يقتل في وقت لاحق،ماحدث في الفلوجة بمعركة الأحزاب (معركة الخندق عام 4 للهجرة - 625 ميلادية) ووعد بان تلحقها "معركة الفتح المبين التي قال :"إن أوارها سيعظم ويمتد لهيبها بإذن الله وصولاً إلى التمكين والفتح المبين.
ومع أن القوات الأمريكية لم تقتحم "الفلوجة" الا أن الزرقاوي حول الازمة إعلاميا إلى معركة كبرى استغلها دعائيا بشكل جيد في التحريض وخاصة في وجود فريق لقناة "الجزيرة" التلفزيونية داخل المدينة في تلك الفترة بقيادة مقدم البرامج المشهور بصلاته الوثيقة بالاسلاميين "أحمد منصور" حيث انهمك ببث تقارير بذل فيها،وهو

الذي لم يعمل مراسلا صحفيا من قبل، جهدا مبالغا في إظهار المدينة وكأنها تتعرض لإبادة جماعية في الوقت الذي كانت جماعة الزرقاوي تفرض هيمنتها على المدينة بقيادة "عمر حديد" المدعو "ابو خطاب."في 19 تشرين الثاني / نوفمبر2004 كشفت صحيفة "الشرق الاوسط" أن حديد هو اخ "حامد حديد" مدير مكتب "الجزيرة" في العراق مما يسلط الكثير من الاضواء على طريقة تعامل القناة القطرية مع الاحداث في العراق.

في الاشهر الثلاثة التي تلت ذلك استمرت جماعة الزرقاوي في عملياتها سواء داخل "الفلوجة" أو خارجها بل أن هذه العمليات إزدادت بنسبة حوالي 25 بالمائة أي إلى حوالي 80 عملية يوميا مما إدخلها في اختبار جدي مع قوات المارينز الذين لم ينسوا انهم أجبروا على الإنسحاب من خطة الاقتحام في نيسان / ابريل مما ادى إلى معاودة الجيش الامريكي إلى شن عملية عسكرية واسعة النطاق ضد الفلوجة في تشرين الاول /اكتوبر 2004 بعد تحضيرات استمرت قرابة ثلاثة أشهر تخللتها العديد من أعمال القصف الجوي الواسعة بهدف تهيئة الأرضية المناسبة لدخول المدينة وطرد الزرقاويين منها.في الساعة السابعة صباحا من يوم 9 تشرين ثاني / نوفمبر 2004 بدأت قوات أمريكية من "فرقة المارينز الاولى" يبلغ عددها 10,000 واخرى عراقية من حوالي 2000 جندي بإقتحام المدينة.كانت القوة النارية المستخدمة هائلة سواء

من الطائرات أو الهليكوبترات التي ضربت البيوت التي تتخذ مقرات للمجموعات المسلحة أو مدافع عيار 120 ملم المركبة فوق الدبابات قد دمرت الموانع التي زرعها المدافعون بالالغام وفتحت طريقها من الناحية الشمالية بإتجاه أحياء وسط المدينة التي قدرت القوات الأمريكية أن 2500 إلى 3000 مقاتل يتحصنون بها.كانت القوات الأمريكية والعراقية استفادت هذه المرة من تجربتها السابقة في المدينة قبل ستة شهور ومن الأخطاء العسكرية والسياسية التي وقعت بها وكذلك من دروس المعارك التي خاضتها قبل ذلك بثلاثة شهور مع "قوات المهدي" التابعة ل"مقتدى الصدر" في "النجف الاشرف"والتي اضطلعت بها وحدة "المارينز الاستطلاعية الحادية عشر."
في الفلوجة التي غادرها معظم اهاليها مع اشتداد العمليات العسكرية والقصف الجوي الأمريكي الكثيف لمواقع المجموعات المسلحة وخاصة في "حي الجولان"،تحصن الزرقاويون وراء متاريس اقاموها في الشوارع الرئيسية وفوق أسطح البيوت وأحيانا في المساجد التي اتخذوها مقرات لهم.لم يكن الزرقاوي نفسه في الفلوجة كما لم يرد أي من المعلومات بانه كان يقود المعارك هناك حيث تولى قيادة المجموعات المسلحة وغالبيتهم المطلقة من العرب "عمر حديد" أحد ابناء المدينة المعروف بصلاته الوثيقة بالوهابيين حتى قبل سقوط نظام صدام.ما عرف عن حديد انه عمل جنديا في الحرس الجمهوري الخاص في عهد

نظام صدام قبل أن يتركه ويسافر إلى افغانستان حيث تدرب هناك في معسكرات القاعدة قبل أن يعود إلى العراق قبل قليل من سقوط نظام طالبان مستفيدا من عفو أصدره صدام عن الهاربين والمسجونين.قاد حديد (33 سنة) حوالي 1200 من المسلحين العرب الذين استمروا في القتال أسابيع طويلة،الا أن الواضح أن هذه المجموعات كانت تفتقد إلى الخبرة اللازمة في قتال المدن كما تفتقد إلى المعدات والاسلحة التي تجعلها ندا لقوات المارينز الأمريكية المصممة هذه المرة على هزيمتها وتدميرها.ما سهل هزيمة المتمردين هو ترك معظم سكان الفلوجة البالغ عددهم اكثر من 150 الف شخص لمساكنهم وخوض المارينز المعارك دون خشية كبيرة من وقوع ضحايا بين المدنيين.بعد حوالي شهرين اخضعت المدينة مرة ثانية للسيطرة بعد ان قتل كافة المقاتلين وغالبيتهم العظمى من العرب كما قتل حديد نفسه في احدى الغارات التي شنتها الطائرات الامريكية.اما من وجهة نظر مجموعة الزرقاوي والجهاديين السلفيين والبعثيين الذين شاركوهم،كانت معركة الفلوجة التي هلك فيها أكثر من الف من مقاتليهم العرب الوافدين،ملحمة كبرى مرغت انف أمريكا في التراب كما كانت فتحا فتحا مبينا في الجهاد ضد الوجود الأمريكي والسلطة العراقية الوليدة.

لم تستطع هذه الجماعات تقديم أي دليل على انجازات حققتها في الفلوجة سوى الاشادة بالبلاء الحسن للمجاميع

الجهادية أثناء المعركة وقبل أن يقتلوا في ميادينها.لكن النتائج الواضحة للمعركة كثيرة؛منها أن الدمار الكبير الذي تعرضت له المدينة أدى إلى نقمة شديدة من قبل السكان على الجماعات المسلحة مما أدى إلى دقق اسفين بينهما منعها من تكرار ذلك العمل في مدن اخرى وهو هدف كبير حققته القوات الأمريكية والعراقية في منع هذه المجموعات من السيطرة على المدن ثانية وإخضاعها إلى سيطرتها ومن ثم تحويلها إلى مراكز لشن الهجمات.فلم تتمكن هذه المجموعات مثلا من تكرار الأمر في الموصل كما كان متوقعا مثلا بعد "الفلوجة" حيث ضربت على الفور كما انها فشلت أيضا في السيطرة على مدن اصغر مثل "القائم" و"الكرابلة" و"راوة" و"حديثة" و"سامراء" و"تلعفر" واضطرت إلى اللجوء إلى تكتيكات الهجمات الانتحارية وزرع العبوات الناسفة دون إي محاولة جدية للمواجهة مع القوات الأمريكية والعراقية.والأهم من كل ذلك إنها فشلت في منع الانتخابات في موعدها المقرر في 30 كانون الثاني /يناير 2005 كما كان مقررا وهو الهدف الأبرز لها حينذاك.

في الوقت نفسه فان النجاح الأمريكي-العراقي العسكري في "الفلوجة" كان تكتيكيا بالأغلب حيث ظل محفوفا باحتمالات الانتكاس وعودة المسلحين بسبب إنعدام وجود افق سياسي للحل الشامل.كما أن "معركة الفلوجة"،كما اتضح فيما بعد،لم تنه تواجد المتمردين من مختلف

الجماعات في المناطق المجاورة واستمرار نشاطهم سواء في هذه المناطق أو في "بغداد" التي انتقل اليها مجموعات كبيرة منها ومن بينها مجموعة الزرقاوي.في الفترة التي أعقبت الانتخابات في كانون الثاني/ يناير 2005 كثفت مجموعة الزرقاوي من عملياتها الانتحارية وشهدت المدن العراقية تفجيرات انتحارية عديدة ابرزها في "كربلاء" و"النجف" في 19 كانون الاول/ ديسمبر 2004 راح ضحيتها 120 شيعيا ثم انفجار في الحلة نفذه الاردني "رائد البنا" في 28 شباط /فبراير 2005 مات فيه 125 مجندا شيعيا كانوا يتواجدون في مركز فحص طبي وانفجار اخر في "المسيب" يوم 4 آيار / مايو 2005 مات فيه اكثر من 90 شيعيا كانوا متواجدين في مسجد.وجاءت العملية الاكثر بشاعة ودموية وهي موت أكثر من ألف شيعي في تدافع اثناء مناسبة شيعية يوم 31 آب / اغسطس 2005 سببه هجوم بصواريخ الكاتيوشا في "الكاظمية" أقر الزرقاوي عن مسؤوليته.

هناك أسباب مكنت الزرقاوي من الاستمرار في هجماته طيلة هذه المدة على رأسها قلة المعلومات الإستخبارية لدى الجانبين الأمريكي والعراقي عن نشاطات جماعته وجماعات التمرد الاخرى والتي منعتهما من شن حرب استباقية عليها وتدميرها.ففي خلال أكثر من عامين فشل الجيش الأمريكي والحكومة العراقية في تحقيق إختراق في صفوف هؤلاء وربما يعود ذلك إلى عدم وجود تعاون كاف

من السكان في المناطق السنية العربية وجدت لديها مصلحة في احتضان هذه الجماعات حتى لو كانت هي ذاتها لا تمارس العنف المسلح.بل على العكس من ذلك تمكنت هذه الجماعات سواء بالترغيب أو الترهيب أو بالرشاوي من اختراق صفوف القوات الحكومية والحصول على معلومات ذات قيمة استخباراتية عالية ساعدتها في تحقيق اهدافها.

وعموما وعلى الرغم من إستمرارها في القيام بالعمليات المختلفة من التفجيرات الانتحارية والاختطاف والهجمات بالعبوات الناسفة وغير ذلك من الهجمات الا أن جماعة الزرقاوي فشلت فشلا ذريعا في تحقيق اية نتائج حقيقية لا على المستوى العسكري ولا على المستوى السياسي.فعدد الجنود الامريكيين الذين قتلوا حتى نهاية شهر تشرين أول / اكتوبر 2005 كان يزيد على 2000 جندي بقليل أي بمعدل حوالي جندي ونصف في اليوم وهو رقم لم يشكل أي تهديد حقيقي للإستراتيجة الأمريكية في العراق في الوقت الذي قتل الأمريكان ضعف هذا العدد من المتمردين العرب معظمهم من أنصار الزرقاوي خلال هذه الفترة.

ولعل أهم اخفاقات الزرقاوي على المستوى السياسي هو فشله في منع عملية الانتخابات في كانون الثاني/ يناير 2005 والتي كانت ضرورية لرفد العملية السياسية بالمصداقية اللازمة مثلما فشل في وقف عملية الاستفتاء على الدستور في 15 تشرين أول/ اكتوبر 2005 والتي

شارك فيها السنة العرب بأعداد كبيرة على رغم التهديدات التي أطلقها.وكذلك فشلت خططه في منع بناء أجهزة الشرطة والجيش وفي ترويع الجهاز الاداري للدولة والاهم من كل ذلك انه اخفق في دفع الشيعة إلى الرد على نطاق واسع على عمليات الاغتيال التي يتعرضون لها واطلاق شرارة الحرب الاهلية وهو الهدف الاساسي للزرقاوي.

لا تعني هذه الإخفاقات بطبيعة الحال أن الزرقاوي لم ينجح في تحقيق شيئ ما،فقد نجح حتما في قيامه بما جاء لإنجازه في هذه المرحلة بالذات.ولكن يبقى أن نجاحه الأكبر سيتقرر في النهاية على ضوء ما سوف تسفر عنه العملية السياسية في العراق،من ناحية،والصفقات التي ستبرم حول العراق بين الأطراف الأقليمية والدولية،من ناحية ثانية.فالزرقاوي بالتالي شخصية وتنظيم يؤدي دور وظيفي،وهذه الأدوار عادة ما تتحكم بمعاير نجاحها أو إخفاقها ما تستفزه من نتائج حولها وليس ما تحققه هي من إنجازات أو خيبات أمل.

(9)

منذ بزوغ عصر الانترنيت في التسعينات من القرن الماضي برز الإسلاميون بمختلف تياراتهم بإستخدام الشبكة العنكبوتية بشكل فعال أولا عبر البريد الأليكتروني

(الإيميل) أما للتواصل فيما بينهم أو لنشر بياناتهم وأدبياتهم عبر أجهزة الإعلام ومن ثم لجؤا إلى إنشاء المواقع المختلفة لتوصيل أفكارهم ومعتقداتهم بشكل مباشر إلى ملايين من المتابعين الذين يتصفحون مواقع الشبكة يوميا.من الغريب انه خلال هذه الفترة تجاهل الإسلاميون الحديث عن الجوانب الشرعية لإستخدام الانترنيت،كما هو شأنهم مع القضايا الاخرى،حيث ينشغلون دائما في التأصيل الشرعي للمسائل التي ينهمكون عليها.فلم نجد في هذه الفترة فتاوى تتعلق بأستخدام الانترينت فى أي من المجالات سواء بإستخدامات الانترنيت نفسه أو في الأغراض التي يستخدم من اجلها.وكان على الإسلاميين أن ينتظروا بضع سنوات أخرى كي تخرج بعض الفتاوي عن قضايا طرحها الإستخدام المتزايد للشبكة مثل الحب والزواج والجنس والمواقع الإباحية في شبكة الانترنيت،التعارف والنقاش بين الجنسين عبر غرف الحوار،الاستماع إلى صوت المرأة،وهل هو عورة وقضايا أخرى مثل إدعاء أسماء وهمية في الحوارات وفي المراسلات الأليكترونية وهل هو جائز شرعا أم لا أو قرصنة المعلومات وغير ذلك من الأمور التي لها صلة بالانترنيت وبتكنولوجيا المعلومات.وقد إنهمك العديد من المشايخ في الرد على الإستفسارات حينها مما أدى في وقت لاحق إلى ظهور مواقع بأسماء كبار الشيوخ والدعاة والذين تنافسوا فيما بينهم في إستخدام هذه الوسيلة المتقدمة

للوصول الى أكبر عدد ممكن من المريدين والأنصار كما أدى لاحقا إلى ابتداع ما سمي بفقه الانترنيت والمعلوماتية.
أدت أحداث 11 أيلول /سبتمبر/ 2001 بسبب التضييق الأمني الذي نتج جراءها على التنظيمات المتطرفة وخاصة القاعدة وتلك التي ترتبط بها إلى تزايد استخدام الشبكة العنكبوتية وخاصة عندما بدأ بن لادن بتسريب اشرطته وبياناته عبرها كجزء من معركته الاعلامية الشرسة والتي خاضها بعد تلك الأحداث لإثبات حظوره بل وإنتصاره على أكبر قوة عسكرية وإستخباراتية في العالم وتصويرها بالعاجزة عن إقتفاء آثاره والقبض عليه.في هذه الفترة تزايد استخدام القاعدة وأنصارها للشبكة وأصبح أكثر إتساعا وتنظيما وبرز موقع "السحاب" الذي وفر من خلال تقنيات متطورة في الوسائط المتعددة بالصوت والصورة برامج هائلة منها رسائل بن لادن نفسه ونائبه أيمن الظواهري وأفلام عن منفذي عمليات 11 أيلول / سبتمبر وأتاحت الفرصة إلى الملايين من مستخدمي الشبكة التعرف على الخطاب السياسي للقاعدة.وسرعان ما ظهرت مواقع عديدة كانت تعمل بمثابة أجهزة إعلام الكترونية للقاعدة ولتنظيمات أو جماعات متطرفة أخرى مما خلق ما بدأ يعرف بالجهاد الأليكتروني كناية عن الكم الهائل من الكتب والأشرطة والبيانات والنقاشات التي توفر الذخيرة الفكرية والعقائدية في الحرب التي تشنها هذه الجماعات والتيارات والشخصيات ضد كل خضومهم.في البدء كان

موقع "الموحدون" وبعد ذلك ظهرت مواقع أخرى عبر الشبكة ظلت تغير من أسماء نطاقاتها إثر ملاحقاتها من أجهزة المخابرات وخاصة الأميركية والتي لم تستطع إيقاف التدفق الهائل عبر هذه المواقع أو المواقع الوسيطة التي تطرح نفسها بإعتبارها مجرد ناقلة وغير معبرة عن لسان حال الجماعات التي تستخدمها تفاديا للمسؤولية القانونية.

إن الهدف الأبرز لعمل هذه المواقع هو إثبات أن القاعدة التي تعرضت لضربات قاصمة في بنيتها لا تزال قادرةً على العمل.وهي رسالة مزدوجة،الأولى موجهة إلى الدول المعنية وأجهزة مخابراتها للقول بانها قادرة على شن المزيد من الهجمات ضد أهداف متعددة في بلدان شتى،والثانية لأنصارها وللشباب المتحمس لمنحهم ليس فقط فرصة الاحتفاء بها بل لرفع المعنويات وحشد الطاقات والحث على الإستمرار ومواصلة الجهاد.وفي الحقيقة كانت الرسالة الثانية هي الأهم في ظل الانقطاع الذي حصل في الإتصالات بين قيادة القاعدة ومن يرتبط بها ويؤيدها،اذ أصبحت البيانات والاشرطة والفتاوي التي تصدر عن القاعدة عبر الانترنيت بمثابة الأوامر والتوجيهات التي تصدر عنها لكل من يؤمن بافكارها،مما شكل اسلوبا جديدا في القيادة والسيطرة والاتصالات أملته الظروف على القاعدة التي أصبحت الان تشكيلا اممييا تمتد أطرافه من أندونيسيا إلى أمريكا.أصبحت شبكة

الانترنيت وسيلة لتجنيد عناصر جديدة وخاصة عن طريق غرف الدردشة حيث توفرت أدلة عديدة على أن بعض الأشخاص تلقوا تعليمات مهمة عن طريق هذه الغرف ومنها المشاركة في بعض العمليات أو الإعداد اللوجستي لها.بل تم رصد إرتفاع حجم المشاركين في المنتديات الإسلامية المتطرفة الذين يستخدمون لغات غير عربية ما يدل على حجم المشاركة والإهتمام الذي تبديه أطراف خارج العالم العربي في هذا النوع من النشاطات.

وبالإضافة إلى الدعاية والتجنيد أستخدمت بعض المواقع الجهادية كميادين تدريب الكترونية وكان ذلك بمثابة تعويض عن معسكرات التدريب الحقيقية التي لا يمكن لهذه الجماعات إقامتها في عديد كبير من البلدان.وتحتوي بعض المواقع مثل موقع "البتار" على معلومات هائلة عن كيفية خطف اشخاص مهمين وعن المراقبة وإطلاق القذائف الصاروخية وصنع المتفجرات والتفخيخ وكيفية إستخدام الهواتف المحمولة كأدوات تفجير.وتشهد غرف الدردشة مناقشات وتبادل إفكار وخبرات حول العمليات الارهابية مثل طرق خطف الرهائن وقطع رؤوسهم.وهناك على الانترنيت "موسوعة الجهاد لتنظيم القاعدة" والتي تضم آلاف الصفحات التي تتعلق بمختلف أشكال العمل العسكري والأمني وتأمين الاتصالات وتبادل المعلومات وأنواع الاسلحة واستخدامها اضافة إلى تقنيات القتال والتكتيكات العسكرية وغير ذلك.

كان أول مرة انتبهت فيها المخابرات الأمريكية إلى الانترنيت كوسيلة إتصالات أو حوارات يستخدمها المتطرفون هو ظهور رسالة على موقع "الساحة دوت كوم" يوم 9 أيلول / سبتمبر2001 اي قبل ثلاثة أيام من الهجمات على نيويورك وواشنطن.كانت الرسالة تبدو بريئة للوهلة الأولي اذ أن هذ الموقع الذي يتخذ من "أبو ظبي" مقراً له يقدم خدمة إعلانية حيث يمكن للناطقين باللغة العربية وضع إعلاناتهم للبحث عن زوجات أو تبادل الرسائل حول أمور رياضية او سياسية،الا أن تلك الرسالة التي التقطها جهاز المخابرات الأمريكية يومها كانت تقول انه خلال اليومين المقبلين ستظهر "مفاجأة كبيرة" مصدرها منطقة "عسير" في المملكة العربية السعودية وهي المنطقة الجبلية النائية التي جاء منها معظم الخاطفين الـ19 الذين نفذوا هجمات 11 أيلول / سبتمبر 2001.غير أن المخابرات الأمريكية لم تكن قد فكت الشفرة إلا بعد وقت من حصول الهجمات وعندها أصبح الانترنيت احدى أهم ميادين اهتماماتها في متابعة الإرهابيين.

سرعان ما أصحبت هذه المواقع والتي بلغ عددها حوالي 4000 موقع مصدرا ثريا للمعلومات لأجهزة المخابرات الأميركية والمتعاونة معها في العديد من الدول والتي بدأت تهتم بها كما حاولت الرد على هذا التحدي في وسائل الإتصالات باستخدام طرق عديدة تتضمن مراقبة المرور على الانترنيت وما يتم تبادله في غرف الدردشة فضلا عن

إستخدام برامج لفحص رسائل البريد الأليكتروني المشتبه بها وإغلاق بعض مواقع الانترنيت التي تحتوي على معلومات حساسة.ويعد تحميل الفيديو على مواقع الانترنيت علامة مهمة لخبراء مكافحة الإرهاب للاستدلال على المواقع التي تستخدمها الجماعات هذه بسبب اعتيادها على بث أشرطة تمثل نشاطاتها ومنها عمليات النحر التي تروج لها بين مريديها.وقد أدى هذا النوع من المراقبة فوائد كبيرة إلى أجهزة المخابرات الدولية التي استطاعت في بعض الحالات من الوصول إلى بعض الناشطين في هذه المجموعات.فقد بين اعتقال خبير الكمبيوتر بتنظيم القاعدة "محمد نعيم نور خان" على يد السلطات الباكستانية في 13 تموز /يوليو 2004 عن تحول غير مسبوق في عمل الاستخبارات من خلال اللجؤ إلى التقنية العالية في مجال المعلوماتية.وكشف وزير الأمن الداخلي الأمريكي "توم ريدج" بان ما حصلوا عليه من اعتقال خان كان كنزا من المعلومات كما اعترف بالوصول اليه من خلال الانترنيت والبريد الأليكتروني.ولكن وبرغم كل المحاولات لملاحقة ومراقبة وأحيانا تعطيل هذه المواقع الا انها استمرت في الظهور مستخدمة وسائل التخفي والتنقل ذات التقنيات العالية والتي بامكانها إيجاد مواقع اخرى كلما ضرب احدها.

وتكشف دراسات أجرتها شركات كومبيوتر وأجهزة مخابرات بان هذه الجماعات عادة ما تلجا لانواع من

الاحتيال للحصول على الموقع دون أن يعلم أصحاب الخدمة انها تبث مثل هذه المواد.فمثلا استمر موقع "البتار" الذي كانت تستخدمه جماعة "القاعدة في جزيرة العرب" في العمل من خلال استضافته من قبل شخص سعودي يستضيف عددا من المواقع المعروفة على خادم (سرفر) مملوك من قبل شركة أمريكية دون علمه بمحتواه.وكشف هذا الشخص بأن "يوسف العيري" أحد قيادي هذا التنظيم اتصل به عبر البريد الأليكتروني وأخبره برغبته في تأسيس موقع شخصي واستضافته ورحب هو بذلك، ثم جاءته حوالة من قرية "دبك" تتضمن قيمة إستضافة لمدة سنتين.ولم يكتشف ذلك الشخص ان ما عمله العيري كان انشاء موقع للتنظيم الا بعد أن قامت "جامعة الملك عبد العزيز للتكنولوجيا" وهي الجهة السعودية التي تراقب شبكة الانترنيت بحجب الخادم بعد اكتشاف الأمر.
في العراق وما ان بدأ

الزرقاوي مهمته كان الانترنيت احدى الوسائل التي استخدمها تنظيمه في بث بياناته وأفكاره.ومن على موقع "منبر التوحيد والجهاد" بدأت المجموعة تصدر بياناتها عن العمليات التي تقوم بها أو الرسائل التي يوجهها الزرقاوي نفسه اضافة إلى استخدام الموقع كمنبر لبث الفكر السلفي الجهادي وخاصة كتابات وفتاوى "أبو محمد المقدسي" و"أبو قتادة" و"أبو جندل الازدي" و"عبدالله بن

ناصر الرشيد" و"عبد العزيز المقرن."بدأ هذا الموقع يلفت انتباه أجهزة الاعلام العربية والدولية بسبب الأخبار التي كان يبثها عن العمليات في العراق والذي أصبح منذ الحرب من أكثر الموقع سخونة في العالم،كان الموقع بمثابة وكالة أنباء الجماعة وأحيانا اذاعتها وتلفزيونها حيث كانت الأشرطة التي تصور بعض العمليات أو رسائل المختطفين وغيرها تبث بشكل دائم كوسيلة لإثبات مصداقية البيانات.الا أن بث صور نحر الرهينة الامريكي "نيكولاس بيرغ" على الموقع يوم 11 آيار /مايو 2004 بيد ملثم قالت المخابرات الامريكية بعد تحليل صوته انه الزرقاوي نفسه أثار الجدل بشأن هذه المواقع حيث تم ضرب الموقع وإزالته من الخادم.لكن سرعان ما بدأت المجموعة تستخدم مواقع إسلامية اخرى مثل موقعي "انصار السنة" و"القلعة" كما بدأت مواقع اخرى يشغلها إسلاميون بتداول المواد التي ترسلها مجموعة الزرقاوي كما ظهر هناك شخص يدعى "أبو ميسرة العراقي" عمل بمثابة منسق إعلامي للمجموعة والناطق الرسمي باسمها.وداوم "أبو ميسرة" الذي تشير اليه جهات عراقية كونه أحد ضباط مخابرات نظام صدام الذين اوكلت اليهم مهمة الارتباط بالزرقاوي منذ وصوله إلى العراق في عهد الرئيس المخلوع على نشر البيانات باسم جماعة الزرقاوي مما كشف عن قدرة تنظيمية كبيرة ووجود هيكلية

اتصالات متينة التنظيم تستخدم تكنولوجيا الإعلام الحديثة في بث رسائل عديدة صادرة عن التنظيم.
وفي الواقع فان جماعة الزرقاوي كانت من أكثر الجماعات المتطرفة الإسلامية،بل العالمية التي لجأت إلى إستخدام وسيلة الانترنيت في عملها وأسست بذلك أساليب جديدة في عمل التنظيمات السرية وخاصة المقاتلة.ولم يوفر الانترنيت لمجموعة الزرقاوي فقط الفرصة للظهور على العالم من خلال أكثر وسائل الإتصالات شيوعيا وسرعة،ولكنه مكنها أيضا في محاولة التأثير إعلاميا في القرارات السياسية للأطراف المؤثرة والمتأثرة بالإرهاب الذي تخوضه.ما مكنه من ذلك هو أن الانترنيت مجال مفتوح وغير خاضع للرقابة مما يتيح له الأمكانية لتفادي أي محاولة للسيطرة التحريرية لوسائل الإعلام التي قد تحاول تقييد خطابه وتكتيكاته.
ومثلما إستفادت مجموعة الزرقاوي من الانترنيت فانها إستفادت في الوقت نفسه من وسيلة اخرى وهي التليفونات التي تعمل من خلال الأقمار الصناعية ثم أستثمرت بعد ذلك دخول التليفون المحمول إلى العراق بعد الحرب حيث سجل إستخدام هذه الوسيلة في تنسيق وتنفيذ العمليات الإرهابية التي تستهدف العراقيين.فشبكة تليفونات المحمول غطت حوالي 85 بالمائة من مساحة البلاد وتبين متابعة العمليات انها ازدادت مع إستخدام الهواتف النقالة في العراق مما حدا بالكثير من العراقيين إلى المطالبة بوقف

عمل الشبكات في المناطق التي تكثر فيها العمليات المسلحة رغم أن العكس قد يكون صحيحا أيضا،أي إمكانية إستفادة القوات الأمريكية والعراقية من مراقبة هذه الشبكات في الاستدلال على منفذيها والوصول اليهم وإلى شركائهم.

من البديهي اذن أن يكون السؤال؛اذا كانت هذه المجموعات الإرهابية تلجأ إلى الانترنيت وباقي وسائل الاتصال بهذا الشكل الواسع فلماذا لا تسعى الدول إلى وضع حد لنشاطها هذه بكل ما يمثله من خطورة سواء تلك التي تتعلق بنقل الأوامر والتوجيهات بين المجموعات المتناثرة وقياداتها أو استخدامها كمنابر للدعاية والتحريض والتجنيد وغير ذلك من الانشطة.وفي الواقع فان الأمر أكثر تعقيدا مما قد يتصور البعض فكما جرى إستعراضه من قبل فبسبب اتساع الشبكة العنكبوتية وتعقد طرق الولوج اليها وكذلك بسبب الخبرة الكبيرة التي يمتلكها الكثير من عناصر هذه المجموعات أو إنصارهم أصبح من الصعوبة الشديدة السيطرة على هذه المواقع ومنعها.الا أن من المؤكد أن السبب الاهم هو عدم رغبة الدول المعنية بالقضاء التام على هذه المواقع نظرا لكونها المصدر الأهم لتوفير المعلومات عن هذه الحركات وعن كل العناصر التي قد تكون على إستعداد لتبني أفكارها أو تأييدها أو التعاون معها.غير أن الحاجة المتزايدة لمراقبة هذه المواقع أدت بأجهزة المخابرات الدولية وبعض مراكز البحوث

المتخصصة إلى إنشاء أقسام خاصة لكي تراقب هذه المواقع بشكل مستمر وتقوم بتحليل كل ما تراه على هذه المواقع كما تتبادل المعلومات التي تحصل عليها في ما بينها وأدت إلى نتائج في غاية الأهمية.

(10)

تميل الكثير من الكتابات عن الحركات الإرهابية التي تعمل باسم الإسلام إلى القول بانها تفتقر إلى الاستراتجية بمعنى عدم وضعها لأهداف سياسية واضحة ومحددة أو رؤية

كلية للامور بل أن كل ما تملكه هذه الحركات هو أديولوجيا تسعى إلى نشرها عن طريق الإرهاب.وتستند هذه الكتابات إلى أن الاساس العقائدي لعمل هذه الجماعات هو فكرة الجهاد بحد ذاتها وأن كل ما تسعى اليه هو الاحتفاظ بروح الجهاد متقدة في نفوس المسلمين وذلك بهدف فتح سبل جديدة للجهاد يتمكن فيها المسلمون من تعزيز وحدتهم وتعضيد إرادتهم.وعلى هذا الأساس وربما مقارنة بأعمال العنف التي قامت وتقوم بها الفصائل الفلسيطينية وغيرها من حركات التحرر في العالم تمضي هذه الكتابات إلى القول بان إفتقاد ما تقوم به هذه الحركات إلى هدف نهائي محدد عدا مهمة إحياء الجهاد وبفكرة ديمومته لا يجعل منها حركات ذات أهداف إستراتيجية بل مجرد حركات أديولوجية تهدف إلى التبشير والتجنيد عن طريق العنف المجرد مما يعني أن العنف والإرهاب لديها يتحول إلى غاية وليس وسيلة.ولعل الزرقاوي يفوق الآخرين ممن سبقوه في هذا الميدان في افتقاده للإستراتيجية الواضحة حيث يبدو ما يقوم به محض إرهاب دموي مجرد من أي غاية سوى غاية سفك الدماء بذاتها.ومع ذلك فانه يبدو قد نجح في تحقيق أشياء كثيرة بسبب الدور الوظيفي الذي يقوم به تحت راية الجهاد بغض النظر عن حقيقية أهدافه المعلنة.وعليه،فان مغالاة الزرقاوي بإستخدامه للعنف بكل صوره،في ظل إنسداد أي أفق سياسي حقيقي،يعتبر بحد ذاته إستراتيجية لا بد انها

تستهدف تحقيق أهداف غير تلك التي يتكلم عنها الخطاب الزرقاوي المدوي في ساحات النقاش.
نجح الإرهاب الذي تولى تنظيم الزرقاوي القيام بنشر القسط الأكبر منه ليس في تعطيل العملية السياسية التي كانت تستهدف إعادة بناء العراق من جديد بعد الحرب الأمريكية عام 2003 بل وأيضا في إشاعة الدمار المادي والمعنوي في البلد الذي خرج أساسا مخربا من تحت رماد الحروب والصراعات التي فرضت على شعبه طيلة ثلاثة عقود من الزمن.على المستوى المادي شل الإرهاب حركة البناء حيث أوقف تماما كل مشاريع إعادة إعمار البنى التحتية التي يحتاجها بلد تعرض لثلاثة حروب كبرى وحروب أهلية طاحنة وعقوبات اقتصادية دولية استمرت ثلاثة عشر عاما.وامتد الأمر إلى التخريب المتعمد الذي قام به الإرهابيون من جماعة الزرقاوي لمنظومات الصناعات النفطية مثلما حصل في ضرب منصة تصدير النفط في "ميناء البكر" ومصافي "الدورة" و"بيجي" والتدمير المتكرر لخطوط التصدير وكذلك ضرب محطات الطاقة الكهربائية التي ظلت تتعرض للتخريب كلما تم إصلاحها بل أن الأمر امتد إلى ضرب منشآت تصفية مياه الشرب ونقلها مرات عديدة مما أدى إلى حرمان أحياء سكنية كبيرة من امدادات المياه وهي أهداف أثارت الكثير من الأسئلة عن الموجبات الشرعية التي إستند اليها مدعي الجهاد في تدميرهم لها والحاق الأذى بمسلمين ومصالحهم.

ومن المؤكد أن الخسائر المادية التي الحقتها العمليات الإرهابية التدميرية بشكل مباشر كبيرة جدا واذا ما اضيفت اليها تكلفة تعطيل إعادة البناء وشل الأوضاع الإقتصادية طيلة هذه الفترة واضطرار العراق إلى أن يعتمد بشكل كبير على أسواق الدول المجاورة وخاصة الاردن وسوريا في تلبية احتياجاته فانها ستتجاوز مليارات الدولارات وهي تكلفة عالية تبين مدى الدمار المادي الذي ألحقه الزرقاوي بالعراق في الوقت الذي يواجه فيه استحقاقات دفع فواتير باهظة هي كلفة الحروب التي شنها صدام.اما ما الحقه الإرهاب الزرقاوي بالعراقيين من أثار مادية مباشرة،فهو بدوره لا يقدر بثمن، حيث دمر فرص العمل وأشاع البطالة وقوض فرص الإستثمار وأدى إلى إستنزاف معظم مدخرات العوائل والأفراد كما أدى إلى هجرة أكثر من مليوني عراقي إلى الدول المجاورة وخاصة سوريا والاردن واليمن ومصر حيث انتقلت اليها رؤوس أموال عراقية تقدر بمليارات الدولارات.

اما على مستوى الخسائر البشرية فلم تكن التكلفة أخف وطأة.فحتى نهاية شهر أيلول /سبتمبر/ 2005 كانت هناك تقارير لمؤسسة "بودي كاونت" البريطانية تشير إلى وقوع حوالي 30,000 عراقي (وتشير تقديرات عراقية الى 100,000) راحوا ضحايا لعمليات الإرهاب المنظم بينما سقط أضعاف هذا العدد جرحى ومعوقين وحرمت عوائل بكاملها ممن يعيلها وأضيفت إعداد جديدة كبيرة إلى قوائم

اليتامي والثكالى والأرامل التي يزخر بها المجتمع العراقي والتي ورثتها عن حروب صدام حسين.وادى الإرهاب الذي مارسه الزرقاوي والجماعات الإرهابية الاخرى إلى تهجير آلاف العوائل الشيعية من المناطق السنية ك"الرمادي" و"تلعفر" و"المدائن" وحتى داخل بعض الاحياء السكنية في "بغداد" ك"الدورة" و"الغزالية" في ما يشبه محاولة تطهير طائفي.وكان أكثر النتائج كارثية على العراقيين هو خلق مناخ من الرعب والارهاب وحالة من إنعدام الأمن والإستقرار حولت البلد كله ميدانا للقتل والتفجيرات والإختطاف والجريمة بحيث أصبح السلاح هو اللغة الوحيدة للتعامل واختفت من حياة العراقيين أية لغة اخرى للحوار والتواصل.ولعل أعداد ضحايا موجات العنف الاجتماعي الناجمة من إنعدام الأمن وإشاعة أجواء الفوضى والجريمة لوحدها تفوق بكثير أعداد من سقط نتيجة مباشرة لعمليات الإرهاب ذاتها.فنتيجة لإنهيار المنظومة الأمنية برزت ظاهرة الجريمة المنظمة لأول مرة في العراق وشاعت أعمال الخطف والسلب والقتل وإنتشار تجارة المخدرات بكل أنواعها وأصبح العراق معبرا لها ولتجارة السلاح إلى الدول المجاورة.

على المستوى الإجتماعي أدت هذه الحالة إلى إنهيار ما تبقى من منظومة القيم الإجتماعية التي أجهزت عليها سياسات النظام البعثي وحروبه مثل التسامح والمروءة والشهامة والتعايش وحلت محلها نزعات شديدة البدائية

والتخلف مثل التحصن القبلي والعشائري والطائفي والمناطقي.ونتيجة لإنعدام سلطة القانون والأمن وضعف الدولة وإنشغالها في التصدي للإرهاب عاث الفساد وأنتشرت المحسوبية والرشوة في الأجهزة الحكومية بينما أدت الإضطرابات الأمنية إلى شيوع حالة من الإضطراب السايكو إجتماعي في عموم المجتع العراقي الذي بدأ يعاني أفراده من حالات الرهاب والانفصام والتوتر والقلق النفسي والمشاعر العدوانية وانفلات الخيالات المكبوتة وردات الفعل العنيفة وغير ذلك من أمراض المجتمعات المضطربة.

على المستوى السياسي حقق الإرهاب نجاحا لافتا في شل تحقيق إجماع وطني بين مكونات الشعب العراقي على العملية السياسية ومنع بشكل خاص إدماج السنة العرب في هذه العملية بل وساهم من خلال الحرب المذهبية التي إعلنها على الشيعة في تعميق الانقسام الطائفي بين العراقيين الذين عاشوا عقودا طويلة في انسجام مذهبي لم تشهده الكثير من البلدان متعددة الجماعات الدينية والمذهبية والقومية.وكان واضحا منذ البداية أن الهدف السياسي الذي تبطنه جماعة الزرقاوي الإرهابية هو تدمير أية فرصة لتحقيق إجماع وطني بين المكونات الوطنية للمجتمع العراقي ومحاولة الشروع في عملية سياسية جامعة.وكانت الجماعات السلفية الجهادية قد تبنت منذ البداية خطابا طائفيا تحريضيا قسمت العراقيين إلى فسطاطين،على حد

تعبيرها،السنة العرب،من ناحية،والآخرين من الشيعة والاكراد وغيرهم،من ناحية ثانية،ونصبت من نفسها مدافعا عن السنة وناطقة باسمهم مما أدى الى إختطاف إرادة مجموعة كبيرة من العراقيين ومنعهم من التعبير الحر عن مواقفهم.

ولعل ما ساعد الزرقاوي في ذلك هو تحالفه مع البعثيين ومع جهات وتنظيمات سنية عراقية وجدت في خطابه وفي عملياته تعبيرا عن مشاعر الإحباط المتزايدة بين السنة بسبب فقدانهم امتيازات السلطة والثروة التي كانت بأيدهم طيلة اكثر من ثمانين عاما وهي مشاعر سارع الزرقاوي لإستغلالها في تحقيق مآربه وخاصة فرض نفسه كمرجعية عالية الصوت تتكلم باسم السنة.كان أول عمل قام به بهذا الاتجاه هو محاولة السيطرة على المدن السنية وتحويلها إلى قلاع تخضعها لنفوذه وهو ما تمكن منه في الفلوجة وإلى حد ما في الرمادي وفي مدن اخرى في مناطق آعالي الفرات ك"القائم" و"راوة" و"حديثة" مثلما حاول جاهد أن يفعله في "الموصل" و"بعقوبة" و"سامراء."كان نجاحه في السيطرة على هذه المدن يعني إخضاع المثلث السني العربي برمته ووضعه تحت نفوذه وتطويق العاصمة بغداد بحزام سني يهيئ الفرصة له بعد ذلك للهجوم عليها وأخذها.غير أن سلسلة الهجمات التي شنتها القوات الأمريكية والعراقية وخاصة التي قامت بها في تشرين أول /اكتوبر وتشرين ثاني /نوفمبر عام 2004 في "الفلوجة"

و"الرمادي" ثم في صيف وخريف 2005 في "القائم" و"تلعفر" أحبطت ذلك المخطط وحرمته من امكانية تشكيل نواة السلطة التي كان يسعى لإقامتها والتي لو قامت لكانت نواة دولة طالبان السنية العراقية ومنطلق تأسيس الخلافة الإسلامية العالمية،كما يراها الزرقاوي،الذي أعلن فعليا الإمارة الأسلامية في "القائم" قبل اقتحامها في شهر أيلول / سبتمبر 2005 .

كان ضرب مقر الأمم المتحدة في بغداد وإغتيال مبعوث الامين العام "سيلفو دي ميلو" أهم عمل تقوم به مجموعة الزرقاوي في بداية نشاطها على صعيد محاولات تخريب العملية السياسية وهو عمل يحمل في طياته نية واضحة على منع أي فرصة لمشاركة السنة العرب في هذه العملية.فدي ميلو كان يعمل على بلورة مشروع سياسي يحظى بقبول سني سبق وأن بلوره ممثل الامين العام الدبلوماسي الجزائري "الاخضر الابراهيمي" يمهد الطريق لمشاركة سنية في العملية السياسية وكان قتله وضرب مكاتب المنظمة الاممية يعني إجهاض ذلك الجهد حتى قبل أن يبدأ ومنع أي جهد دولي أو إقليمي مماثل في المراحل القادمة،هذا فضلا طبعا عن هدف عزل السلطة العراقية الوليدة عن العالم من خلال ترهيب الأمم المتحدة ومنعها من ممارسة أي دور جدي وحقيقي في جهود الإعمار وإعادة البناء السياسي والمادي وهو هدف تحقق

إلى حد بعيد اذ لم يعد للمنظمة الدولية أي دور حقيقي تلعبه بهذا الصدد.
كان النجاح الثاني بهذا الإتجاه هو حملة الترهيب الواسعة التي شنها الزرقاوي لمنع السنة من المشاركة في الإنتخابات التي جرت في 31 كانون الثاني / يناير 2005 وكذلك المحاولات الشرسة لمنعهم من المشاركة في صوغ الدستور العراقي وفي التصويت عليه في 15 تشرين اول /اكتوبر2005.من المؤكد أن ذلك النجاح لم يتحقق بسبب قناعات السنة العرب،أو بالاقل الأغلبية منهم،ببرنامج السلفية الجهادية ومشروعهم في العراق بقدر ما كان نتيجة الموقف السني العام غير المتقبل نفسيا للحالة الجديدة في العراق التي استغلها الزرقاوي في عمليات إخضاعهم للإرهاب والترويع والإبتزاز التي كانوا يتعرضون لها من جماعته.وحتى عندما ظهر شعور لدى بعض السنة بانهم إرتكبوا خطأ في مقاطعة الانتخابات وحاولوا معالجة ذلك في فترة لاحقة بإبداء الرغبة والإستعداد في المشاركة في الحكومة أو لجنة صياغة الدستور حتى تعرضت العديد من مدنهم إلى عمليات إرهابية مثلما حصل في "بيجي" و"الحويجة" و"الموصل" كما طال الإغتيال شخصيات معتدلة منهم كانت منخرطة في حوارات حول المشاركة في الحكومة أو لجنة صياغة الدستور مثل الاستاذ في القانون "جاسم العيساوي" الذي اغتيل يوم 22 حزيران / يونيو 2005 بينما وصلت تهديدات بالتصفية الجسدية

لآخرين.كما جاء اغتيال "مجبل الشيخ عيسى" أحد الأعضاء السنة الذين التحقوا بلجنة صياغة الدستور يوم 19 تموز/ يوليو 2005 ليشكل علامة انذار لباقي الأعضاء السنة من المشاركة في العملية السياسية.
وجاءت عملية اختطاف رئيس البعثة الدبلوماسية المصرية "ايهاب الشريف" يوم 3 تموز / يوليو 2005 من قبل تنظيم الزرقاوي ومن ثم الاعلان عن إعدامه بعد خمسة أيام من ذلك ثم ما تبعه من اختطاف الدبلوماسيين الجزائريين "علي بن عروسي" و"عز الدين بلقاضي" يوم 21 من الشهر ذاته ثم قتلهما إضافة إلى الاعتداء على الدبلوماسي البحريني "حسان الانصاري" والسفيرين الباكستاني والروسي لتدل على مدى تصميم الزرقاوي على إفشال أي محاولة لإجراء مصالحة وطنية بمشاركة القيادات السنية العربية يمكن أن تشجعها أطراف عربية ودولية.فالواضح أن الزرقاوي كان يراقب تحركات هؤلاء الدبلوماسيين في محاولات تقريب وجهات النظر وتمهيد الأجواء لإجراء المصالحة الوطنية بين العراقيين.فالزرقاوي كان يدرك أن لهذه البلدان اتصالات مع إطراف واسعة في الأوساط السنية والبعثية وكانت تعمل على إقناعها في المشاركة في العملية السياسية وخاصة بعد مؤتمر "بروكسل" حول العراق الذي عقد يوم 22 حزيران / يونيو 2005 والذي دعا إلى مثل هذه المصالحة واراد توجيه ضربه لهذه المحاولات خاصة بعد

التقارير التي تحدثت قبل ذلك بوقت قصير عن إتصالات أجريت من قبل ضباط ودبلوماسيين أمريكيان مع أطراف مشاركة بالتمرد بهدف استمزاج موقفها من عملية المشاركة في العملية السياسية وكذلك أنباء مماثلة عن وساطة يقوم بها "الاخضر الابراهيمي" مع جهات بعثية لنفس الهدف.

من هنا يمكن فهم إستراتيجية الزرقاوي السياسية،وهي إستراتيجية من الضروري التأكيد على انها مغايرة تماما للإستراتيجيات التي إتبعتها باقي الحركات الجهادية،ومن ضمنها القاعدة،وخاصة تحديدها الدقيق للاعداء الذين تبغي قتالهم وبناء أولوياتها على هذا الأساس، وتعين الحلفاء الضروريين الذين ستستعين بهم في الجهاد.اذ على الرغم من أن الزرقاوي يطرح نفسه باعتباره جهاديا يبغي تحقيق مبادىء السلفية الجهادية التقليدية كما جاءت على لسان غلاتها إبتداء من "أبن تيمية" ومرورا ب"سيد قطب" وإنتهاء ب"المقدسي" وهي تحكيم شرع الله ورفع راية التوحيد والتبرء من أهل الشرك،فانه يتوسع في ضم سلسلة الأعداء الذين يجب حسب رأيه محاربتهم لكي يتم تحقيق هذه الأهداف لكي يشمل الشيعة والأكراد والصليبيين المحتلين في المرتبة الأولى ثم يأتي بعدهم السنة الذين يرفضون اجتهاداته ولا يلتقون معه في مذهبه المتشدد وفي أساليبه الإرهابية التي يسعى من خلالها تحقيق تلك الأهداف.

واذا كان عدد الأعداء الذين وضعهم الزرقاوي هدفا لجهاده واسعا من خلال رسائله وبيانات تنظيمه فانه على المستويين النظري والتطبيقي العملي لا يخفي حقيقة أنه يستهدف الشيعة بالدرجة الأساس والذين وجه نحوهم كل سموم خطابه وكل الهجمات الإرهابية التي قام بها.فهدف محاربة الشيعة وإجتثاثهم من العراق يأتي لديه في القمة متقدما على هدف قتال المحتلين الأمريكان وتحرير العراق وهو أمر لا بد وأن يثير الكثير من الشكوك والريب.فاعلان الحرب على الشيعة وتخوينهم وتكفيرهم وإتهامهم بإقامة تحالف مع الصليبيين هو إتهام لم يشهده العالم الإسلامي ربما منذ سقوط الدولتين الفاطمية في مصر والعباسية في العراق ولا يمكن أن يعني الا إشعال فتيل الصراع داخل الإسلام،الأمر الذي يستدعي تساؤلات عن جدوى طرح مثل هذا الهدف وعما اذا كان الزرقاوي بإصراره على ذلك يخدم إستراتيجيات وأهدفا أخرى غير تلك التي يتبناها التيار السلفي بشكل عام.

ومن الدلائل المفيدة هنا هو الرسالة التي بعث بها "أيمن الظواهري" الرجل الثاني في تنظيم القاعدة والتي نشرها البنتاغون يوم 7 تشرين أول /اكتوبر 2005 والتي يحذر فيها الزرقاوي من مغبة معاداة العالم الإسلامي اذا تمادي في قتل المسلمين وقطع رؤوسهم.وتكشف هذه الرسالة التي تتكون من 13 صفحة،وتحمل تاريخ تموز /يوليو 2005،وتقول القوات الأمريكية أنها عثرت عليها في

العراق،عن توافق في الأهداف بين الرجلين وإختلاف في التكتيكات حيث لا يدين الظواهري قتل الشيعة صراحة بل يرى أن الأمر قد يختلط على العامة فلا تفهم مقاصده.
مهما كان هدف الزرقاوي فان مما لا شك فيه هو أنه لن يستطيع اجتثاث 17 مليونا أو أكثر من الشيعة العراقيين كي يستطيع أن يشق طريقه إلى تحقيق إهدافه المعلنة.عليه لتحقيق ذلك اجبارهم على ترك عقيدتهم مثلما فعل مسيحيو اسبانيا بالمسلمين بعد هزيمتهم للدولة الإسلامية في الأندلس أو إبادتهم نحرا أو تفجيرا أو ربما حرقا بأفران الغاز كما فعل النازيون باليهود لكي يقيم على اشلائهم خلافته الاسلامية المرجوة.ولا بد أن الزرقاوي يدرك أن بين تحقيق تلك الرغبة وبين الحقائق على الأرض خرط القتاد.يبقى اذن الهدف الآخر الذي يسعى اليه وهو دفع الشيعة إلى إتباع سياسة هجومية انتقامية مغايرة لما اتبعوه من سياسات ضبط النفس والصبر طيلة الفترة التي تلت سقوط نظام صدام وبالتالي دفع العراقيين إلى الحرب الاهلية الطائفية التي يأمل من ورائها تحشيد أكثر من مليار مسلم سني في العالم ضد المسلمين الشيعة لإجبارهم على التخلي عن المزايا السياسية التي حققوها بعد الحرب.واذا كانت هذه هي إستراتيجة الزرقاوي فإن السؤال مرة أحرى هو من يخدم الزرقاوي في كل ذلك.

(11)

يعتبر "عصام طاهر البرقاوي" المعروف باسم "أبو محمد المقدسي" أحد أبرز منظري التيار السلفي الجهادي في فترة التسعينات من القرن العشرين وتعود أهميته إلى أنه الهم الكثير من الشباب المسلم بأفكاره المتشددة التي تستند

إلى التكفير،تكفير أنظمة الحكم وتشريعاتها وقوانينها ومرجعياتها السياسية والثقافية وكل ما يتعلق بأنماط الحياة والسلوك في الدول العربية والإسلامية التي يراها لا تلتزم بما يسميه هو والعديدين من منظري التيار السلفي الجهادي عقيدة التوحيد والبراءة.كما تكمن أهميته في كونه الملهم الأول للزرقاوي ومعلمه الذي جسد بدوره الأداة الفاعلة لنقل أراء المقدسي وإجتهاداته إلى أرض الواقع قبل أن يشب التلميذ عن طوق معلمه ويعلن تمرده عليه كما حصل دائما في تاريخ الحركات والتيارات السياسية في العالم.

لا يعرف الكثير عن المقدسي سوى أنه ولد عام 1962 لعائلة من سكنة "برقا" وهي من البلدات التابعة لنابلس في الضفة الغربية والتي ربما تكون سميت على اسم أحد أفخاذ قبيلة "عتيبة" التي تنتشر في الجزيرة العربية.على موقع "التوحيد والجهاد" على الانترنيت الذي يديره أنصاره هناك نبذة عن حياة المقدسي جاء فيها:هو أبو محمد،عاصم بن محمد بن طاهر البرقاوي،المقدسي شهرة، العتيبي نسباً.من قرية "برقا" من أعمال نابلس.ولد فيها عام 1378 هجري وتركها بعد ثلاث أو أربع سنين مع عائلته متوجها إلى الكويت حيث مكث فيها وأكمل دراسته الثانوية.ثم درس العلوم في جامعة الموصل بشمال العراق تحت رغبة والده. وهناك يسر الله له الاتصال بالعديد من الجماعات والحركات الإسلامية.تنقل بعد ذلك ما بين الكويت والحجاز وكان له هنا وهناك احتكاك طيّب واتّصال كبير بطلبة

العلم، وبعض المشايخ الذين أخذ عنهم بعض مفاتيح العلم ممن لم يشفوا غليله مما يبحث عنه الشباب من بصيرة في الواقع وتنزيل الأحكام الشرعية الصحيحة عليه،والموقف الصريح في حكام الزمان ووضوح السبيل إلى تغيير واقع الأمة.فعكف على مطالعة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم وكتب الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وتلاميذه وأولاده وأحفاده من أئمة الدعوة النجدية فعكف عليها وقتاً طويلاً فكان لهذه الكتب بالتحديد أثر عظيم في توجّهه بعد ذلك."وتشير النبذة على الموقع إلى انه سافر إلى الباكستان وأفغانستان مراراً وتعرّف خلالها إلى أفراد وجماعات كثيرة من أنحاء العالم الإسلامي وشارك ببعض الأنشطة التدريسيّة والدعوية هناك،وهناك أيضا كتب وطبع "ملّة إبراهيم" كتابه الأول.ثم غادر افغاستان وأستقر في الاردن عام 1992 قبل أن يعتقل فيها عام 1994.

المحطة الاولى لنشأته المتطرفة كانت الكويت التي هاجرت اليها عائلته بعد حرب الأيام الستة عام 1967 وإحتلال إسرائيل للضفة الغربية حيث نشأ ودرس في مدارسها مثله مثل آلاف الاطفال الفلسطينيين.في الكويت حيث كانت هناك جالية فلسطينية نشيطة سياسيا تستثمر الجو العام الأكثر إنفتاحا من كثير من الدول العربية الاخرى آنذاك تعرف الشاب المقدسي إلى جماعة صغيرة من الإسلاميين يسمون أنفسهم بأهل الحديث وهو تيار سلفي له امتدادات تاريخية حاول البعض تجديده في تلك

الفترة في السعودية وبعض المناطق الاخرى بالإعتماد على ترديد النصوص بطريقة مباشرة دون الكثير من الجهد النظري والفكري في فهمها والذي كان سمة غيرهم من التيارات الإسلامية التي برزت في تلك الفترة المضطربة بعد الهزيمة التي ألحقت بالعرب في الحرب مع اسرائيل عام 1967 كما حصل مع التيارات الإسلامية في مصر وبعض البلدان الاخرى.وربما كان هناك تأثير لشخص كويتي وهو "عبداللطيف الدرباس" المعروف بكنيته "ابو هزاع" بتحول المقدسي الجذري آنذاك حيث كان هذا الشخص الذي سيصبح عديله لاحقا من اتباع السعودي "جهيمان العتيبي" الذي قاد عملية احتلال الحرم المكي في عام 1979 قبل أن يسجن في السعودية ومن ثم يعود للكويت بعد الافراج عنه.ومن الواضح أن المقدسي تأثر يومئذ بالعتيبي على مستويين أولهما فكري والثاني حركي حيث شاهد شأنه شأن الكثير من الشباب المسلم الجرأة التي ميزت حركة العتيبي باقتحامه وجماعته المسجد الحرام وخروجه على النظام السعودي قبل أن يقضى عليهم في عملية دموية بإقتحام المسجد بعد أيام من السيطرة عليه ساهمت فيها قوات فرنسية وباكستانية.

هناك فترة لا نعرف عنها الكثير في حياة المقدسي وهي فترة دراسته في الموصل في العراق الذي كان وصل اليه بعد تبؤ صدام حسين مقاليد الحكم وبدأ الحرب العراقية الايرانية وهي فترة لا يأتي على ذكرها لا المقدسي نفسه

ولا أعوانه على الرغم من أنها من أكثر الفترات اضطرابا على الصعيدين السياسي والفكري مر بهما المقدسي.تعتبر الموصل مدينة محافظة،ويومها كانت الوحيدة من بين المدن العراقية التي تضم جماعات وهابية وسلفية كانت تتمتع بنوع من حرية النشاط على الرغم من الطابع العلماني للنظام البعثي الذي بدأت أجهزته الأمنية والإعلامية حينها تشجع هذا التيار كجزء من معركته الاديولوجية مع نظام "آية الله الخميني" في ايران الذي كان يخوض معها حربا ضروس.لا يشير المقدسي إلى هذه الفترة من حياته وليس هناك الكثير في كتاباته ما يتناول حكم البعث أو أفكاره أو اديولوجيته ولا نعرف لا عن طريقه ولا عن طريق مريديه فيما اذا كان تعرض لضغوط أو ترغيب من قبل أجهزة صدام اثناء وجوده في العراق.(في فترة لاحقة وبعد سقوط النظام عام 2003 كتب المقدسي رسالة تحت عنوان "لم نصدم بصدام" هاجم فيها الرئيس العراقي السابق باعتباره احد الطواغيت.)

فور عودته إلى الكويت برز المقدسي كواحد من الناشطين في مجال الدعوة الإسلامية في وقت كانت الكويت نفسها تواجه تحديات افرزتها الثورة الإسلامية الشيعية في ايران ودعوات تصدير الثورة التي كان يطلقها البعض بل وأيضا تعرضت لهجمات إرهابية اتهم فيها شيعة معارضون للمساعدات التي كانت تقدمها الحكومة الكويتية لصدام في حربه مع ايران.في هذه الفترة المضطربة من تاريخ

المنطقة التي شهدت أحداثا كبرى أخرى إضافة إلى الحرب العراقية الايرانية،كتوقيع اتفاقية السلام الاسرائيلية المصرية ثم إغتيال الرئيس المصري "أنور السادات" والإحتلال السوفيتي لافغانستان ثم الاجتياح الاسرائيلي للبنان برزت بعض خصال المقدسي كمشتغل في المجال النظري وسرعان ما بدأ يطرح آراءه التكفيرية وبدأ يشدد في مقتضيات تكفير الحكام وأصبح يدعو إلى ترك الوظائف الحكومية ويطالب بإخراج الاطفال من المدارس حيث كتب بهذا الصدد كراسه "إعداد القادة الفوارس بهجر فساد المدارس" وهو مافعله لاحقا حين امتنع عن إرسال أطفاله إلى المدارس في الاردن.

في عام 1989 سافر المقدسي إلى السعودية بذريعة العمرة لكن من الواضح أن الأمر كان يتعلق بترتيبات السفر إلى افغانستان للمشاركة في الجهاد الافغاني الذي من الغريب أن المقدسي لم يكن قد انظم اليه لحد الأن في حين أنه أصبح يقترب من نهايته.تشير النبذة المنشورة عنه في موقعه على الانترنيت إلى إتصالات له "مع طلبة العلم وبعض المشايخ الذين أخذ عنهم بعض مفاتيح العلم ممن لم يشفوا غليله مما يبحث عنه الشباب من بصيرة في الواقع وتنزيل الأحكام الشرعية الصحيحة عليه والموقف الصريح في حكام الزمان ووضوح السبيل إلى تغيير واقع الأمة. فعكف على مطالعة كتب "ابن تيمية" وتلميذه ابن القيّم والشيخ محمد بن عبد الوهّاب وأخرين من الدعاة

الوهابيين والسلفيين والتي تركت أثر عظيما في توجّهه العقائدي.
ويقول سلفيون التقوه أنه كان شعلة من النشاط في التبشير بأفكاره بين الشباب الذين كان يستهويهم الاستماع اليه حيث كان يظهر قدرة على حفظ النصوص الدينية وتوظيفها لصالح فكره المتعصب.كانت تلك هي الفترة التي يسميها السلفيون فترة الصحوة قد شهدت نوعا من المنافسة وربما الصراع بين اصحاب الفكر السلفي مع التيارات الإسلامية الاخرى مثل الاخوان المسلمين.كان الاخوان حتى تلك الفترة بتياراتهم الثلاثة البنائية (نسبة لحسن البنا) والقطبين (نسبة لسيد قطب) والسروريين (نسبة لمحمد بن سرور بن زين العابدين) يتمتعون بمكانة ممتازة داخل السعودية مدعومين من أطراف نافذة في السلطة الا أن التطورات التي نشأت عن تزايد دور المشايخ والدعاة السلفيين أضعفت من موقفهم.وهنا يبدو أن المقدسي التزم جانب السلفيين حيث ساند يومها الداعية السلفي السعودي الشيخ "عبد الله الدويش" في الجدل الذي كان سائدا حينها حول نقده لكتاب "في ظلال القرآن" لسيد قطب الأمر الذي اثار التيار القطبي في الاخوان والحركيين عليه.
في افغانستان التي سافر اليها بداية التسعينات كان الجهاد قد بلغ أيامه الاخيرة وليس هناك ما يشير إلى أن المقدسي شارك في أي من المعارك ضد القوات السوفيتية أو حتى انه عرف في أوساط كبار المجاهدين غير أنه يشير إلى أنه

التقى بالزرقاوي لأول مرة في مدينة "بشاور" الباكستانية التي كانت محطة الانتقال إلى داخل افغانستان.وفي بشاور كما يقول المقدسي أيضا أنهى كتابة كراسه الشهير "ملة ابراهيم" الذي دشن فيه حضوره في ساحة التنظير للفكر السلفي وخاصة بث مفهوم "الولاء والبراء" الذي أصبح منذئذ ركنا أساسيا في خطابه الدعوي.يلخص المقدسي دعوة التوحيد وملة ابراهيم بأنها ليست دعوة إصلاحية ترقيعة بل هي دعوة تغيرية إستئصالية للطواغيت وشركهم وحرب على اوليائهم تقوم على تجريد الولاء والبراء والحب والبغض والموالاة والمعاداة.الطاغوت الذي اعتبر المقدسي الكفر به عروة الايمان الوثقى وهو حسب المقدسي يتجلى في صور كثيرة أهمها عدم حكمه بما أنزل الله كما قالت الآية القرآنية: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.وبما أن "جميع" الانظمة العربية لا تحكم بما أنزل الله، حسبما يقرر المقدسي فهي إذن طاغوت من الطواغيت التي أمرنا الله بالكفر بها والبراءة منها أسوة بالنبي إبراهيم ووفقا لما جاء في القرآن "قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله».وقد شبه البعض من اتباعه الكتيب هذا ب"معالم في الطريق" ل"سيد قطب" واعتبروه المرشد الاديولوجي للجهادية السلفية.في فترة لاحقة أصدر المقدسي كتابه "الكواشف الجلية في تكفير الدولة السعودية" والذي ركز فيه على تكفير الدولة السعودية.

وللمقدسي العشرات من الكتب والكراسات والرسائل الاخرى المتوفرة على موقعه على الانترنيت لعل من أبرزها أيضا "وقفات مع ثمرات الجهاد" و"إمتاع النظر في كشف شبهات مرجئة العصر" و"مشروع الشرق الأوسط الكبير" و"الرسالة الثلاثينية في التحذير من الغلو في التكفير" و"القول النفيس في التحذير من خديعة إبليس" والتحفة المقدسية في مختصر تاريخ النصرانية" وكلها أعمال تدل على طموح المقدسي الجامح للنشر والانتشار بين الاوساط الجهادية.ومن الملاحظ أن هذه العناوين تتضمن شتى المواضيع الدينية والسياسية مما يعكس الاهتمامات المتنوعة للمقدسي وطموحه لأن يكون صاحب مشروع جهادي متكامل وهو مما لم يقم به منظرون اخرون في هذه التيارات.

أراء المقدسي عموما تتمحور حول قضية يجدها جوهر الاسلام وهي التوحيد والتكفير وخاصة تكفير الحكام حيث يرى أن على رأس أولويات التيار الذي يدعو اليه هو ما يسميه نواقض التوحيد المعاصرة مثل أن يصرف التشريع لغير الله والاحتكام إلى القوانين الوضعية وتعطيل حكم الله وهذا ما يطلق عليه بالحاكمية في مصطلحات الراديكاليين المعاصرين والتي يقول انها جزء أساسي من التوحيد.هذه المسألة ليست بالجديدة في فكر الجماعات المتشددة فقد جاءت من قبل في كتابات "سيد قطب" و"أبو الأعلى المودودي" اللذين جعلا موضوع الحاكمية محوريا في

مشروعهما الفكري والذي تبنته معظم الحركات والتيارات الاسلامية المتشددة فيما بعد.لا يضيف المقدسي شيئا جديدا إلى ما تلقفته الجماعات المتشددة التي اتبعت مفهوم الحاكمية منذ ستينات القرن العشرين بعد صدور كتاب "معالم في الطريق" ل"سيد قطب" على الرغم من النقد الواسع الذي جوبه به من علماء ومفكرين إسلاميين وخاصة الذين رأوا انه مفهوم جاء في إطار تاريخي وظروف سياسية معينة في إشارة إلى أن أول من طرحه كانوا الخوارج الذين اعترضوا على واقعة التحكيم بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبي سفيان ورفعوا شعار "لا حكم إلا لله".

وهناك مفارقة تاريخية اخرى في اطروحة ملة ابراهيم تتعلق بأصل الديانات التوحيدية الثلاث أي اليهودية والمسيحية والإسلام والذي يعود إلى ابراهيم الذي تتفق الديانات هذه على انه الاب الفعلي لها مما يثير تساؤلا في مغزى الاطروحة على الرغم من أن المقدسي يحاول أن يشرح المفارقة بدعوته للتميز بين مقولة "أبناء إبراهيم" ومقولة "ملة إبراهيم" التي يرى في الأولى محاولة للترويج لمصالحة اليهود وهدم عرى الإيمان وتمييع أصل الدين ودك قواعد الولاء والبراء (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. آل عمران: 67) وبين الثانية التي فرقت على حد قوله بين الآباء والأبناء وبين أولياء الرحمن وأولياء

الشيطان (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه. البقرة: 130)

وحتى في تكراره لمفهوم الحاكمية لم يخطو المقدسي خطوات أبعد مما كتبه السلف وخاصة عجزه في مجال التأصيل الفكري والسياسي للمفهوم مثل البحث في أنواع الحاكمية ومقاصدها ومصادرها الشرعية وأدوات تحقيقها السياسية والشرعية وغير ذلك مما توسع فيه باحثون اسلاميون أخرون اهتموا بالتميز بين المستويات العقدية والسلوكية في عدم الاحتكام إلى شرع الله الأمر الذي يميز أيضا بين ماهو كفر وماهو مجرد إنحراف عن مقتضى الشرع قد يصل إلى مستوى الظلم أو الفسق.اما المقدسي فقد تجاوز بتطرفه كل الحدود فهو مثلا يكفر إي نوع من المشاركة في المجالس التشريعية باعتبارها شركا بالله كما جاء في كتابه "الديمقراطية دين" حيث يرى أن هذه المجالس تجعل حق التشريع مطلقا للبشر لا لله وهي ما يراه من المكفرات الصريحة ونواقض الإسلام الواضحة بغض النظر عن نوع التشريع الذي يقوم به عضو هذا المجلس.وفي هذا الأمر كما يرى بعض الباحثين خلط واضح بين الحاكمية بالمعنى السياسي أي نظام الحكم وبين الحكم بما أنزل الله بمعنى اختصاص الله بالتحليل والتحريم في أمر العبادة والدين.

ما يطبع المقدسي شأنه شأن باقي السلفيين هو تزمته من ناحية النصوص واجتراره لها وقرائته لها قراءة اديولجية

محضة تتطابق مع وجهة نظره الاحادية ومما يزيد من إشكاليته أنه يفتقد لإمكانيات التأويل وعلمه وأدواته وقواعده مما يجعل افكاره تنحصر في في مدار عالم مثالي منغلق يستميل اصحاب الأفكار البسيطة والمتطرفة ويداعب افئدتهم ويقدم لهما زادا يشرعون على أساسه أساليبهم الراديكالية في العمل السياسي والتنظيمي الذي يطلقونهو عليه الجهاد.هذا النوع من الافكار المتطرفة استهوى اشخاصا مثل الزرقاوي خاصة وانه جاء من شخص فلسطيني اردني وهو عامل مهم في العلاقة التي قامت بين الرجلين منذ التقائهما في بشاور في اوائل التسعينات والتي أسست للعلاقة المستقبلية بين المقدسي المتطلع إلى لعب دور القائد الاديولوجي أو الشيخ أو الامام بينما يتطلع الزرقاوي إلى القيادة العسكرية والسياسية في مشروع مشترك.

غير إن كل الدلائل تشير إلى إختلافات وخلافات ظهرت بين الرجلين في وقت مبكر لأسباب هي نفسها التي أدت إلى تحالفهما في البداية مما يكشف عن علاقات إنتهازية ومصلحية حاول كل من المقدسي والزرقاوي أن يستغل الاخر ويثبت سطوته عليه.هذه الخلافات ليست جوهرية كما يحاول الرجلان أن يلمحا في رسائلهما المتبادلة فالمتمعن في ما كتبه المقدسي وما ذكره عن الزرقاوي في مقابلات مثلما رد الأخير عليه سوى صراعات شخصية على الزعامة رغم أن الأثنين حاولا أن يحتفضا بودهما

الواحد للآخر.تتمحور خلافات الرجلين حول بعض الامور مثل ما يراه المقدسي من الغلو في التكفير عند الزروقاوي والإفراط في عمليات الذبح والعمليات الإنتحارية وإستهداف الشيعة والكنائس المسيحية وغيرها.
وفي رسالته للزرقاوي "مناصرة ومناصحة ... آمال وآلام" التي نشرت أولا في تشرين اول / اكتوبر 2004 أشار المقدسي إلى هذه الخلافات والتي قال أنها لم تكن حول مشروعية العمليات الإستشهادية أو عدمها بل قول المقدسي ان العمليات الإستشهادية هي وسيلة إستثنائية وليست وسيلة تقليدية أصيلة في العمل الجهادي وهو كلام يعني أنه ليس ضد هذا النوع من العمليات بل يحتج بضرورة أن يكون المبرر لذلك شيء استثنائي.اما بالنسية لقتل الشيعة فان ما يراه المقدسي عدم تكفير عموم الشيعة أو إستهدافهم وعدم جواز جعلهم كلهم في كفة واحدة عوامهم وخواصهم المحاربين وهي صيغة غامضة تتيح قتل الشيعي كلما وضع قاتله مبراراته لقتله.وبشأن عمليات الذبح المصورة فأنه يبررها بان "للمجاهدون اجتهاداتهم الخاصة التي تنبع مما يشاهدونه ويباشرونه وربما يغيب عنا أبعاد ذلك مما يحتاجه المجاهدون من دب الرعب في نفوس جنود الاحتلال وإنزال الهزيمة النفسية والمعنوية في صفوفهم."وكل ذلك ذلك يضعه المقدسي في باب الأخطاء والأفعال الظاهرة البينة ولا يمضي الى تحريمها أو حتى ادانتها.

إن قراءة دقيقة للرسالة توضح أن المقدسي يقف على مسافة قصيرة جدا من الزرقاوي استراتيجا،لكنه قد يختلف معه تكتيكيا،فمشكلته مع تلميذه النجيب السابق ومريده الأبرز إنه أكثر غلوا في الإستباحة وتطرفا في التكفيرمن المعلم ذاته.ليس هناك في الرسالة ما يشير إلى خلافات أساسية بين الطرفين بل كل ما يركز عليه المقدسي هو توسع التلميذ في تطبيق إجتهادات الاستاذ وهو ما يشير إلى نية المقدسي التملص من مسؤولية ارتكاب الزرقاوي لجرائمه باسم الإسلام وهذا واضح في عنوان الرسالة وهدفها وهو المناصرة والمناصحة والتي يختتمها بدعائه لأخيه أبو مصعب ومن معه بالتوفيق لنصرة التوحيد والدين الحق.

في 12 تموز / يوليو 2005 رد الزرقاوي على رسالة المقدسي كما رد على تصريحاته ل"قناة الجزيرة" والتي صرح بها بعد أيام قليلة من اطلاق سراحه من سجنه قبل أن يعتقل ثانية وردد بعض مما قاله في رسالة المناصرة والنصيحة.يفتتح الزرقاوي رسالته التي سماها "بيان وتوضيح لما اثاره الشيخ المقدسي في لقاءه مع "الجزيرة" بإستعارة لبيت الشعر الشهير "وظلم ذوي القربى أشد مضاضة/على المرء من وقع الحسام المهند" ثم يمضي ليصف ما اعتقده من كلام المقدسي في الرسالة من أنه مجرد كبوة من فارس يوشك أن يقوم منها الا أنه اكتشف في ترديدها في لقاء الجزيرة أن الأمر يتعدى حدود النصح

والمناصرة إلى المغالطات.واذ يرد الزرقاوي على معلمه وملهمه فانه يحاول أن يفند ما جاء على لسان المقدسي بنفس الاسلوب السلفي الجهادي وهو العودة إلى نصوص منتقاة سواء من القرأن الكريم أو من الحديث الشريف أخذت من خارج سياقها وأولت بطريقة اديولوجية بارعة لخدمة اهداف وغايات معينة تماما كما يفعل المقدسي نفسه في كتاباته.

ظاهريا يبدو أن الجدل بين الزرقاوي والمقدسي يدور حول تفسيرات اختلقوها هم لنصوص ضمن الفكر السلفي الجهادي التقليدي الذي ينتميان اليه وهو صراع تقليدي عادة ما ينشأ بين منتمين لنفس التيار طالما شهد التاريخ مثيل له.غير انه مثل ما حصل مرات عديدة في التاريخ صراع تستخدم فيه الافكار كآدوات لتحقيق زعامة وقيادة التيار بين من يدعي السبق بطرح المنهج،وهو هنا المقدسي،ومن يدعي انه لم يحققها فقط على ارض الواقع،بل فاق فيها براعة استاذه،وهو في هذه الحالة الزرقاوي.والواقع أن الزرقاوي بتركيبته الاجتماعية الآتية من عمق البدواة والمنصهرة في واقع مدينته الزرقاء وخلفيته في عالم الطيش والجريمة كان يحاول فقط تجاوز استاذه في إيغاله في البطش وسفك الدماء بغية تحقيق المشروع الجهادي الذي تبناه المقدسي.

(12)

من المؤكد الآن ان الإرهاب الذي يقوده الزرقاوي في العراق سوف لن يتمكن لأسباب موضوعية من تحقيق أي من أهدافه المعلنة في مشروعه الجهادي السلفي مهما طالت الحرب التي يشنها على العراقيين ومهما كانت الأساليب التي يلجأ اليها.سوف لن يتمكن الزرقاوي مهما

نفذ من عمليات تفجير وقتل ونحر من تحقيق أوهامه في تحويل العراق إلى قاعدة يشن من على أرضها غزواته تحقيقا لما يراه هو بفريضة الجهاد وجعلها منطلقا لنشر ما يدعوها بعقيدة التوحيد على ربوع العالم برمته وتحويله نهائيا إلى دار الإسلام التي يراها.كما أن ما هو مؤكد هو أن العراق لن يسقط بيد الزرقاوي ولا بيد أي من أتباعه بعده.كما أن من المؤكد أيضا انه لن يهزم أمريكا أو الغرب ولن يضمهما إلى دار الاسلام تلك،مهما كثرت جعجعاته.وبالتأكيد فانه لن يتمكن من إجتثاث الشيعة مثلما يدعو اليه للأسباب التي مر ذكرها.

غير أن المؤكد أيضا هو أن الضرر الذي الحقه الزرقاوي بالعراق وبالعرب والمسلمين بل بالإسلام نفسه هو أكبر وأكثر فداحة مما يمكن تصوره وانه سيأخذ وقتا طويلا قبل أن يتم اصلاحه.فلقد أصبح العراق بفضل الزرقاوي كما رأينا البؤرة الأكبر للإرهاب الدولي واقترفت على أرضه جرائم يندى لها جبين أي مسلم،لكن الجريمة الأفظع التي أرتكبها الزرقاوي في العراق هي أنه نجح في ما فشل فيه غيره من أن يوقد فتيل الفتنة الطائفية بين العراقيين من سنة وشيعة والتي ظلت عصية على الاتقاد عقودا طويلة.وحتى عندما كانت الأنظمة الحاكمة تمارس التمييز الطائفي قدم العراقيون سنة وشيعة للمنطقة وللعالم أجمع نموذجا رائعا على التسامح والتعايش تجلى في تلك التركيبة الفريدة لعشائرهم وعوائلهم التي جمعت بين السني والشيعي حتى

جاء الزرقاوي لكي يدق اسفينا بينهم.ما نجح فيه الزرقاوي أيضا هو أنه زرع بذور التطرف بين العديدين من سنة العراق الذين ربما كانوا من بين القلائل من السنة في العالم الاسلامي الذين لم يعرفوا التيارات المتشددة ومارسوا إسلاما وسطيا مستمدا من تراث العراق الذي على تربته ظهرت كل المذاهب والعقائد الإسلامية حتى جاءهم الزرقاوي بالوهابيين والسلفيين الجهاديين وغيرهم من المتشددين والإرهابين.

كما أعطب الزرقاوي ومجموعته العلاقات بين العراقيين وبين محيطهم العربي بشكل يصعب تصحيحه على المديين القصير والمتوسط.فالعراقيون سيظلون ينظرون إلى الزرقاوي بإعتباره شخص اردني لم يتجاوز فقط كل الحدود والمبررات في التدخل في شؤونهم بل أمعن في قتلهم بوحشية إستثنائية لم يجرأ عليها أحد من قبل.وسيظل العراقيون ينظرون إلى الزرقاوي بانه الشخص الذي استقطب آلافا من العرب الآخرين الذين انضموا اليه في حملة إبادة طائفية وعنصرية عطلت مشروعهم الوطني ونشرت الخراب والدمار في بلادهم.إن أخطر ما فعله الزرقاوي ومجاهدوه العرب هو أنهم دقوا اسفينا بين العراقيين من الشيعة والآكراد وبين العرب سيكون من الصعب إزالته لسنوات طويلة.اذ من المؤكد أن أجيالا عديدة قادمة من العراقيين ستظل تتساءل عن السبب الذي جعلها تدفع هذا الثمن الباهظ للحرب التي شنها شخص

اردني منبوذ استجلب آلافا من المنبوذين العرب معه لكي يسفحوا دمائهم باسم الإسلام والعروبة كما سيظلوا يتسائلون عن أسباب الصمت العربي والإسلامي الرسمي والشعبي عن كل تلك المجازر التي ارتكبت ضدهم والتي ارتقت الى مرتبة التواطئ في الجريمة.

ولعل الجريمة الاخرى الكبرى التي ارتكبها الزرقاوي وجماعته والتي تجاوزت العراق هو أنهم أيقضوا نار الفتنة الطائفية في العالم الإسلامي حين شنوا حربا باسم الإسلام على أكثر من ربع عدد المسلمين في العالم بعد أن كانت قد خمدت عقودا وربما قرونأ طويلة.فلقد تجرأ الزرقاوي وأعلن تكفيره للشيعة بل أنه مضى في قتلهم ومحاولة إجتثاثهم لا لشيء سوى لانهم شيعة مما أجج مخاوف الأقليات الشيعية في عموم المنطقة العربية من ما يمكن أن يكون الأمر عليه لو تمكن الزرقاوي من بث أفكاره المتعصبة في باقي دولها.لقد وجه الزرقاوي بالفعل ضربة موجعة ليس لمشاعر ملايين الشيعة في لبنان وسورية والسعودية والخليج واليمن وفي باقي الدول العربية بل للجهود التي بذلت خلال السنوات الأخيرة من أجل توثيق عرى المودة والتقارب والإندماج وحل الإشكاليات الموروثة.

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أن الحرب التي أعلنها الزرقاوي على الشيعة نبهت باقي الأقليات الدينية والمذهبية في المنطقة من مسيحيين ودروز وامازيغ

وآخرين إلى ما يمكن أن يؤول اليه مصيرهم في حالة إنتصار العقائد الزرقاوية وشيوعها في العالمين العربي والإسلامي.كيف سيثق الماروني اللبناني والقبطي المصري والعلوي السوري والإحيائي السوداني والبربري الجزائري بانه جزء من هذه المنطقة وبان بإمكانه أن يعيش في أمن وسلام وطمأنينة إلى جانب المسلمين فيها.هنا يبدو المشروع الزرقاوي ليس فقط النقيض الموضوعي لفكرة المواطنة بل الأداة التي بذرت بذرة فناء دول ومجتمعات المنطقة الفسيفسائية.

من التبعات المؤكدة لجهاد الزرقاوي في العراق هو أن آلافا ممن التحقوا به من العرب سيعودون يوما إلى بلدانهم وهم يحملون ليس فقط أفكارهم المتطرفة بل ما هو أشد خطرا وفتكا منها وهي أحباطاتهم وشعورهم العميق بالهزيمة الذي سيعوضونه برحلة جديدة في البحث بين سطور النصوص لإعادة انتاج الافكار التي ساقتهم إلى تلك الفظاعات والجرائم التي ارتبكوها باسم الإسلام.ما سيحملونه معهم أيضا هو ثمار التجربة التي خاضوها في العراق ورغبة أكيدة في تكرارها تماما مثلما فعل الجيل الذي سبقهم العائد من افغانستان.لقد دفعت بلدان عديدة مثل الجزائر ربما مائتي الف ضحية ثمنا لتلك العودة ودفعت بلدان اخرى مثل السعودية واليمن والمغرب ومصر والاردن وتونس أثمانا بشرية أقل عددا ولكنها ليست أقل تكلفة من ناحية التنمية الاقتصادية والسياسية والثقافية بل

تركت بعضها عرضة لمخاطر إنعدام الأمن والإستقرار أن لم يكن مخاوف التفتت والإنهيار.ومن المؤكد أن تبعات هذه الموجة الجديدة ستكون أكثر تدميرا لو نجح الارهاب في افشال التجربة الحالية ودحرها اذ عندئذ سيكون لدى الزرقاوي وجماعته الإمكانية في الإدعاء أنهم كانوا وراء ذلك.

وحتى قبل أن تنتهي مهمتهم في العراق كانت هذه الجماعات قد أطلقت نفيرها في أماكن اخرى من العالم حيث لم تكن تفجيرات مدريد في 11 أذار /مارس 2004 ولندن في تموز / يوليو 2005 بمنأى عما يحصل هناك ليس كونها صدى بل تواصلا فكريا وعملياتيا على قاعدة نقل نشاطها إلى دار الحرب الأساسية أو معقل الكفر اليهودي والصليبي كما يروها.إن النتائج المتحققة من تلك العمليات وحدها كانت كافية لكي تؤجج نار الكراهية في أوربا كلها ضد العرب والمسلمين مثلما فعلت تفجيرات نيويورك وواشنطن قبل ذلك في امريكا.لقد ادت الاعمال التي ارتكبوها إلى تأجيج نار الكراهية والتعصب ضد ملايين المسلمين الذين وجدوا في الغرب فرصهم في الحياة والكرامة والحرية بعد أن ضاقت بهم بلدانهم وأصبح من المخاطر التي يتعرض لها المسلمون على يد المتعصبين في العديد من بلدان العالم ظهورهم بمظاهر إسلامية واضطرت بفضل الارهاب آلاف المسلمات إلى التخلي عن حجابهن نتيجة المخاوف من تعرضهن لسوء

المعاملة.وبسبب هذا الإرهاب أصبح كل المسلمين منبوذين وعرضة للشبهات في مطارات وشوارع العالم ومحلاته العامة والأهم من كل ذلك ضاعت فرص الإتصال والتواصل الحضاري للمسلمين مع بقية العالم وخاصة مراكزه الحضارية والثقافية والعلمية.
عموما فإن من المشكوك فيه أن يتمكن فيه هؤلاء الإرهابيون من النجاح في تحقيق مآربهم في العراق غير أنهم ربما سينجحون في نشر الإرهاب الفكري والدموي في المنطقة وفي العالم ربما لسنوات طويلة اخرى قبل أن يتمكن الإسلام الحقيقي من دحرهم وقبل أن تتمكن البشرية من الإنتصار عليهم لكن بعد أن يكون المسلمون قد دفعوا ثمنا باهظا ليس فقط من الدماء التي سوف تسيل بل وأيضا من الفرص العظيمة التي سوف تهدر في التقدم وفي تحقيق الإنجازات الحضارية التي قدم المسلمون عبر قرون طويلة حصتهم العظيمة منها للبشرية.بل وسيدفع الإسلام ذاته الذي أراده الله عز وجل أن يكون خاتم رسالته إلى البشر ثمن العدوان الذي شنه بعض أبنائه الجهلة والمتعصبين عليه حين مدوا للمتربصين به بالسلاح الذي يمكنهم من حجب إشعاع نوره الذي سطع على الانسانية أربعة عشر قرنا.إن من يلم باستراتيجيات هذه الحركات يعلم علم اليقين بانها مجرد تكتيكات وأفكار وعمليات إرهابية عشوائية أحيانا تحركها أديولوجية ظلامية وأحيانا تجري ضمن حروب بالإنابة عن آخرين.هذه العمليات لا معنى ولا

مسوغ لها مهما تلونت بتفسيرات خاطئة وجاهلة ومبتسرة عن الإسلام ذاته وعن العلاقة بين الإسلام وبين العالم.اذ أن ما تعتقده هذه الحركات هو أن الإثخان في ضرب الأوربيين والأمريكيين سيؤدي بالنتيجة إلى تأجيج عدائهم للمسلمين مما يخلق رد فعل موازيا لدى المسلمين من الضروري أن يؤدي لاحقا إلى صراع حضاري بين الطرفين.أي بمعنى آخر أن الإستراتيجية التي يتبعوها هي دق أسفين بين الغرب وبين العالمين العربي والإسلامي سيدفع بالتالي المسلمين إلى أحضان هذه الجماعات.

ما الذي يعنيه كل ذلك؟يعني أن هذه الموجة من الإرهاب التي يقف وراءها الزرقاوي تطرح تحديات خطيرة على المسلمين وخاصة العرب منهم بل وأيضا على العالم برمته لمكافحتها بعدما أصبح واضحا أن كل الجهود التي بذلت لحد الأن لم تعد كافية لإيقافها لسبب انها كانت جهودا إنفرادية وفي أحسن الأحوال ثنائية لم تصل إلى أي درجة معقولة من التنسيق والتعاون الدولي.فعلى المستوى العربي فشلت إتفاقية مكافحة الإرهاب التي وقعتها الدول المنضوية في مجلس وزراء الداخلية العرب على تحقيق التعاون المطلوب لأن الدول الموقعة تعاملت من خلالها بنفس الطريقة التي تتعامل مع باقي إتفاقيات التعاون العربي.ويعود سبب فشل الإتفاقية إلى كونها مجرد إتفاق أمني محدود لا يرتقي إلى معاهدة حقيقية للتعاون في إطارت شاملة تتضمن كل الميادين التي لها صله بالقضاء

على الإرهاب.وحتى في المجال الأمني فقد ظل التعاون والتنسيق انتقائيا ودائما ما يتم أو لا يتم لإعتبارات سياسية ضيقة دون اية مبالاة بما يمكن أن ينتج من التهاون في ملاحقة الإرهابيين وردعهم وتصفيتهم وتجفيف منابعهم المادية.

في نفس الوقت هناك تردد واضح في خوض معركة جادة على المستويات التربوية والثقافية والفكرية لمواجهة هذه الجماعات وكشف ودحض إنحرافاتها الخطيرة وبعدها عن الإسلام الحقيقي.فكما أثبتت التجربة العراقية أن تردد العلماء والهيئات والدول الإسلامية في إتخاذ موقف حازم من الإرهاب من خلال إدانة واضحة وغير ملتبسة أدى إلى تمادي الإرهابيين الذين ربما أعتبروا الأمر تبريرا أو حتى مباركة لأعمالهم.ما هو مطلوب هو فتاوى مضادة لفتاوي التكفير تؤكد على سماحة الإسلام ورفضه الصريح للعنف ضد الابرياء مهما كانت تسميته والتبرأ من هذا الفكر وأي صلة له بالإسلام.والمطلوب أيضا تحويل الإرهابيين إلى أشخاص منبوذين خارج نطاق المجتمعات التي يعيشون فيها من خلال عمل فكري حقيقي يسحب اسم الإسلام منهم ومن أعمالهم وتصنيفهم بإعتبارهم خارج حظيرة الإسلام الحقيقي ومصدرا لتدميره ومحوه من الخارطة الإنسانية.ما فعله الزرقاوي والمجموعات التي على شاكلته هو أنهم أججوا صراعا على الإسلام وفي داخله مما ينبغي على كل المسلمين الوقوف بوجه هذا التيار ودحره حفاظا على

دينهم وعقيدتهم وعلى مكانتهم في هذه العالم ولاعادة الإسلام إلى مكانته المشرقة في مسيرة البشرية.

على المستوى الدولي هناك ضرورة إلى نظرة جديدة للعلاقات بين المسلمين وباقي دول ومجتمعات العالم مستخلصة من دروس الإرهاب والمعاناة الاليمة التي سببها لكلا الطرفين والتي وضعتهما على حافة صراع الحضارات وهو الصراع الأخطر والأكثر بشاعة وشمولية الذي يمكن أن تواجه البشرية منذ ولادتها.فالواقع هو أن بعض الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية إضافة إلى دول عربية وإسلامية ساهمت بارادتها أو بسبب السياسات قصيرة النظر والأنانية في تنامي هذه الظاهرة بل في الواقع أن هذه السياسات الخرقاء بالذات هي التي خلقت الوحش الذي انقلب عليها ويحاول إفتراسها الأن.

هناك وقائع لا تحصى في التاريخ القريب عما يمكننا الآن من وصفه بالأخطاء الفظيعة التي ارتكبتها دول عديدة ساهمت بخلق ظاهرة الافغان العرب،وعلى رأسهم بن لادن،والذين تحولوا فيما بعد إلى تلك الجحافل من الإرهابين الذين ضربوا في كل مكان عادوا اليه بعد رحلة الجهاد الافغاني.وهناك قبل ذلك سياسات الإسترضاء والغزل والإستجداء التي مارستها دول وأنظمة مع الحركات الإسلامية المتشددة والتحالفات التي أقامتها معها لأغراض أنانية هدفها كسب شرعية زائفة أو تصفية أعدائها أو منافسيها السياسيين والاديولوجيين.ومن

المؤسف أن نفس هذه الدول وغيرها فشلت في تعلم الدرس الافغاني ومن ضمن ذلك النتائج المروعة لهجمات 11 أيلول / سبتمبر 2001 الإرهابية ومارست سياسات مشابهة أزاء الظاهرة الزرقاوية أو أنها غضت الطرف ومرة ثانية لحسابات أنانية ونفعية قصيرة النظر.

من المؤشرات الخطيرة ليس فقط على قدرة جماعة الزرقاوي بل وعزمها على الضرب خارج العراق هو عملية ضرب ميناء العقبة الاردني في 19 آب/ أغسطس 2005 والتي أعلنت الجماعة مسؤولتيها عنها تلتها بثلاث عمليات انتحارية يوم 9 تشرين الثاني / نوفمبر 2005 راح ضحيتها هذه المرة اكثر من ستين قتيلا في رسالة قوية على أن العراق أصبح معسكر التدريب والمستودع البشري للجماعات الإرهابية التي ستنتشر عاجلا أم آجلا في المنطقة بسبب تلك السياسات القصيرة النظر التي مورست فيها.

يكفي أن يبقى الزرقاوي طليقا كل هذ الوقت وتتاح له الفرص لكي يمارس عبثه وساديته في قتل العراقيين وأن يعرض مستقبل العلاقات المذهبية بين المسلمين إلى أكبر خطر ممكن أن يواجهوه في تاريخهم كي تثار الشكوك ليس حوله وحول مسيرته المحاطة بالغموض فقط بل حول ما اذا كانت هناك رغبة وإرادة حقيقيتين لدى الأطراف المعنية بالملف العراقي لوضع نهاية له ولسلوكياته المدمرة.فانعدام وجود هذه الرغبة هو أكثر ما يثير كل هذه

التساؤلات ويعزز الشكوك في سلوكيات الزرقاوي وأهدافه بل في شخصه بالذات.

خاتمة

لا يفترض هذا العمل في كل الأحوال أن الزرقاوي هو نتاج مؤامرة دولية أو انه عميل لدولة أو جهاز ما أو مجموعة من الدول والأجهزة والتي جاءت به لخدمة مخطط معين سواء في العراق أو في المنطقة.هناك ميل طبعا في الاسئلة الإستنكارية التي عادة ما تطرح عنه بربطه بمؤامرة ما مثلما حصل وتم توجيه اتهام مماثل إلى أسامة بن لادن وباقي الافغان العرب بإعتبار أنهم لم يكونوا

غير أدوات بيد المخابرات المركزية الأمريكية ودول حليفة للولايات المتحدة في الصراع ضد الشيوعية.ما سعى إليه هذا العمل هو إلقاء الضوء على معظم الجوانب المتعلقة بنشأته الاجتماعية والظروف التي صاحبت تكوينه والأشخاص والعقائد التي ساهمت في بلورة أفكاره والمحطات الأساسية التي قطعها في مسيرته والتي أدت جميعها إلى خلق هذه الظاهرة التي تبقى مهما قيل أو كتب عنها مثار علامات إستفهام وتعجب بسبب التأثيرات الهائلة التي خلفتها أو تلك المتوقع أن تخلفها في المنطقة.

لا يمكن أن يكون الزرقاوي مجرد قاتل سادي عدمي مأجور وجد فيه لاعبون على المسرحيين الاقليمي والدولي ضالتهم في لحظة من أشد اللحظات ضراوة في تاريخ الصراع على المنطقة كما لا يمكن لهذا البدوي الخارج من مقابر احدى أكثر مدن الاردن تخلفا ومن اقبية سجونها ومن كهوف افغانستان أن يكون مفكرا المعيا يضع لأكثر من مليار ونصف مسلم أجندتهم ومستقبل وجودهم ويقودهم في أخر غزواتهم الكبرى لتحويل العالم كله إلى دار الاسلام المنشودة.انه كما يبدو ظاهرة خلقتها كل هذه الظروف والعوامل وغيرها مما يعني أن كل المعلومات والإفتراضات التي تتردد بشأنه لا بد من وضعها تحت المجهر للمزيد من الدراسة والتمحيص سواء أكان الامر يتعلق بمسيرة حياته الشخصية أو الأفكار التي يتبناها أو البنية التنظيمية التي قامت عليها مجموعته أو

الإستراتيجيات التي إتبعها.واذا كانت الأوراق السابقة قد ركزت على الزرقاوي ذاته وما يحيط بسيرته وممارساته من أخبار ومقولات فان فهم الظاهرة لا يمكن أن يستقيم دون وضعها في إطارها الصحيح من التفاعلات والتحولات التي أحاطت بها وفي محيطها الذي ترعرعت فيه.

لقد برزت ظاهرة الزرقاوي في ظل مرحلة الحرب الكونية الشاملة على الإرهاب التي أعلنتها الولايات المتحدة الأمريكية بعد أحداث 11 أيلول / سبتمبر 2001 والتي تستهدف إجتثاث العنف والإرهاب الذي تمثله وتروج اليه الحركات الإسلامية المتطرفة.كما جاءت أيضا في سياق الحرب التي شنتها الولايات المتحدة على العراق لإسقاط نظام صدام حسين والتي لم تكن أهدافها الإستراتيجية ببعيدة أيضا عن تلك الحرب الإستباقية ضد الإرهاب التي جعلتها واشنطن عنوانا للمرحلة الحالية من الصراع الذي تخوضه لترسيخ مركزها كأكبر قوة عسكرية وسياسية عالمية.ما أفرزته كلا الحربين هو رؤية أمريكية جديدة للمنطقة مغايرة لما قامت عليه الإستراتيجية الأمريكية لعقود طويلة وتقوم على أساس ان إستئصال الإرهاب وإجتثاث الانظمة والأفكار الشمولية هما وجهان لعملة واحدة.ولذلك فان أي محاولة لتفسير ظاهرة الزرقاوي لابد وأن تأخذ بنظر الاعتبار هذه الخلفية المعقدة من الاحداث

التي شهدتها المرحلة واللاعبين الأساسيين الذين يقفون وراءها.
السؤال الأساسي اذن هو كيف ولماذا تزامنت هذه الظاهرة مع الحرب على العراق وفيما اذا كان الأمر مجرد صدفة بحتة أم امرا مبيتا وممن؟ليست هناك في الوقت الحاضر أجوبة دقيقة ومفصلة عن أسباب بروز الزرقاوي المفاجئ في العراق.فالجهاديون يقولون انهم كانوا يعدون للحرب وللاحتلال الأمريكي للعراق عدته منذ سقوط قلعتهم في افغانستان ويستعدون للانتقال إلى العراق للبدء من هناك برحلة جهاد جديدة.ومع ذلك ليس هناك من المؤشرات ما يؤكد على أن أسامة بن لادن كان يفكر في أي مرحلة من المراحل بالانتقال إلى العراق وجعله القاعدة الجديدة لعمله بل على العكس من ذلك فان هناك من التأكيدات ما يؤشر إلى أنه خطط لكي يبقى في حماية أنصاره وأنصار طالبان من البشتون في افغانستان والباكستان لقتال الأمريكان في كل مكان يمكن أن تصل اليه "القاعدة" أو أنصارها.كل ما لدينا من أدلة استعرضناها في مسيرة الزرقاوي ومحطاتها المختلفة تشير إلى أن هناك مشروعين جهاديين مختلفين أحدهما لبن لادن يديره من جبال وزيرستان والآخر للزرقاوي في العراق حتى وأن التقيا،ظاهريا أو تكتيكيا،وحتى لو كان ذلك تحت اسم "القاعدة."
اذ ما أن أنتهت الحرب بسقوط صدام حتى تحول العراق إلى ميدان رئيسي لحرب اخرى وهي الحرب العالمية على

الإرهاب وهو ما قد يوفر إجابة ولو جزئية عن السؤال المضني وهو كيف وصل الزرقاوي إلى العراق ولماذا اختاره بالذات لشن جهاده.الأمريكان لم يخفوا أبدا عزمهم على خوض هذه الحرب ضد الارهاب في هذا البلد حيث كرر قادتهم وعلى رأسهم الرئيس جورج بوش بان الجبهة التي فتحوها في الحرب على الإرهاب في العراق جعلت المدن الأمريكية أكثر أمنا.هذه المقولة لا يمكن أن تدل على صدفة تنتظرها أكبر قوة عسكرية في العالم ولا في مسيرة أهم حرب تخوضها في تاريخها بل لا بد انها تقع في لب الإستراتيجية التي تتبعها لدحر العدو فيها.لم يصبح العراق المغناطيس الجاذب لقوى الإرهاب والقبلة التي يتوجهون اليها من كل حدب وصوب بل أصبح الميدان الذي تسعى الولايات المتحدة فيه إلى حسم معركتها ضد الإرهاب الدولي.

إن خطط المحافظين الجدد في الادارة الأمريكية الذين خططوا لهذه الحرب وأشرفوا على تنفيذها كانت واضحة من البداية وخاصة بعد تفجيرات 11 أيلول / سبتمبر 2001 حيث أنهم استبعدوا أية إمكانية للتعامل مع الإرهاب الناشىء عن التطرف الإسلامي باعتباره ظاهرة عقائدية معقدة تتطلب معالجة سياسية ثقافية اقتصادية وفضلوا اللجوء إلى الحل العسكري الذي يتلاءم مع مخططاتهم وأهدافهم في بناء الامبراطورية الأمريكية الجديدة.وعلى هذا الأساس فان خطط الحرب على العراق وتلك المتعلقة

بإدارة الاحتلال التي وضعها المحافظون الجدد تضمنت،كما اتضح بعد ذلك،نوايا وربما خططا لجعل العراق الميدان الأرحب للحرب على الإرهاب التي كانوا قد أوكلوها إلى الجيش الأمريكي إبتداء من افغانستان إلى المغرب العربي مرورا بالعراق والقرن الأفريقي.إن ما يلخص هذا الترابط والتزامن هي المقولة التي ظلت تتردد على لسان العديد من المسؤولين الأمريكيين،في معرض دفاعهم عن الحرب،والبقاء في العراق، وهي أن ذلك كان ضروريا لإبعاد الإرهاب عن المدن الأمريكية مما يعني عمليا أن يتحول العراق إلى ساحة المعركة الاساسية ضد الارهاب العالمي.

من ناحية ثانية،أدت الحرب الشاملة على الإرهاب وما أعقبها من إسقاط نظام صدام حسين إلى هزة عنيفة في المنطقة لم تتبين نتائجها الكبرى بعد الا انها اشرت إلى جملة من الانقسامات والاستقطابات وعمليات التفكيك التي أدت بدورها أو انها ستؤدي لاحقا إلى إعادة تركيب للسياسات المحلية وللتحالفات الدولية فيها.وكان نتيجة ماحصل هو فقدان تام للتوازن في الأنظمة السياسية والاجتماعية والثقافية في الكثير من دول المنطقة ومجتمعاتها مما أدى إلى تباين شديد وتخبط في ردود الافعال تجاه التطورات التي فجرتها تلك الحرب غير المسبوقة في أهدافها وفي أساليبها التي تجاوزت ماهو عسكري وسياسي إلى ماهو فكري وثقافي وديني.فمن

ناحية،نرى مثلا،أن أنظمة مثل تلك التي في ليبيا وفي السودان، وهي أنظمة ظلت سنوات طويلة منبوذة بسبب تشددها ورعايتها للارهاب،قد فضلت الإستسلام التام أمام الهجمة الأمريكية،في سياق الحرب على الإرهاب،وطوعت نفسها،سواء تقية أو انصياعا للظروف والمستجدات أو ايمانا بذلك،للاذعان متخلية عن كل ماضيها السابق بينما اختارت أنظمة مثل سوريا وايران،من ناحية مقابلة،تحدي هذه الموجة الأمريكية ومواجهتها بأساليب شتى من بينها اللعب في ملعب الإرهاب ذاته.هناك اتفاق شبه تام بين متابعي ملف الزرقاوي من عراقيين قريبين له وبعضهم عمل معه وراقب تحركاته وكذلك من أجهزة إستخبارات إقليمية وأوربية على أنه لولا الدعم الحكومي من سورية ومن ايران لما كان نشاط الزرقاوي وصل إلى هذه النقطة.إن أحد التفسيرات عن الدور السوري والايراني في ظاهرة الزرقاوي،كما حاول هذا الكتاب ان يقترب منه،هي أن البلدين اختارا أن تكون ساحة مواجهتهما مع أمريكا في العراق ذاته كإستراتيجية دفاع ذاتي ضد الحرب الأمريكية الجديدة.

هذا هو بالضبط ما يمكن أن يفسر هذا التحالف أو التوافق بين نظام الدولة الإسلامية الشيعي في ايران والنظام العلوي المتلحف بلحاف القومية العربية في سوريا مع أكثر الحركات تطرفا وعداء للشيعة وللقومية العربية حيث

تفوقت حاجات حماية النظام في البلدين امام الضربات الأمريكية المتوقعة على أية اعتبارات مذهبية أو قومية.ولا يتضمن موقفي النظامين أي جديد فايران الإسلامية تصرفت دائما على المستويات السياسية والإستراتيجية بإعتبارها دولة تضع حماية أمنها القومي وكيانها فوق أي إعتبار مذهبي بل انها جنحت عبر مختلف الأنظمة التي حكمتها إلى توظيف الإعتبارات المذهبية التي تربطها بشيعة المنطقة لمصلحة الدولة الايرانية.هذا الأمر ينطبق كذلك على النظام البعثي السوري الذي سخر عبر عقود أربعة من حكمه الشعارات القومية لهدف وحيد هو البقاء في السلطة حتى ولو أدى ذلك إلى إحتلال بلد عربي بكامله مثل لبنان ومحاولة تركيع حركة تحرر وطني عربية كمنظمة التحرير الفلسطينية.وعلى هذا الأساس فان أي تحالف أو توافق أو احتضان أو مساعدة ابداها النظامان في ايران وسوريا للزرقاوي لا يمكن أن يكون أمرا غريبا وربما على أساس تلك القاعدة الرائجة- عدو عدوي صديقي.

ولعل الأمر ذاته ينطبق على باقي الدول العربية،وخاصة تلك المجاورة للعراق،التي قد يرتقي تساهلها مع الزرقاوي بشتى الطرق والوسائل إلى مستوى التوافق معه رغم أن المبررات هنا تختلف تماما عن تلك التي تتوفر لدى سوريا وايران.ما تفعله هذه الدول قد يتجاوز غض النظر عن عمليات التجنيد واسعة النطاق التي تجري داخلها لرفد

الزرقاوي بالأشخاص أو عن الدعم المادي السخي الذي يقدم لتنظيمه من ناشطين داخلها أو حتى محاولات التحريض المنظمة التي يستثمرها الرزقاوي إعلاميا وسياسيا.اما سبب ذلك فهو بالتأكيد عد ارتياح هذه الدول من التغير الذي حصل في العراق والمخاوف النابعة من إمكانية سيطرة الشيعة على الحكم في العراق والنتائج التي تترتب على ذلك.وسواء كان الأمر مدبرا أم مجرد مصادفة عرضية فان الأمر انتهى أيضا إلى تحالف غير مقدس استثمره الزرقاوي إفضل إستثمار ممكن للمضي في تنفيذ مشروعه.

واذا كانت التحالفات السابقة شبحية فان التحالف الزرقاوي-البعثي مكشوف إلى إبعد الحدود وهو تعبير واضح عن القواسم المشتركة التي تجمع بين الفاشية القومية والفاشية الدينية منهجا وممارسة.وحتى اذا صحت النظرية التي تقول بان الزرقاوي والتيارات الجهادية الإسلامية لا تشكل في جوهرها حركة سياسية ذات هدف سياسي واضح بل مجرد حركة غضب هادر غير ذات هدف ظاهر فان ما يجمع بينها وبين الفاشية البعثية الكثير ويتعدى طابع العنف المفرط الذي تمارسه كل منهما لتحقيق غاياتهم المرجوة.أهم ما يشترك فيه التياران هو صناعة الأوهام الكبرى وتسويقها بإعتبارها مسلمات،وعادة ما يكون ذلك بأسم الأمة،العربية تارة،والإسلامية تارة أخرى،أو حتى الجمع بينهما.ولأنها

أوهام فان تسويقها يحتاج عادة إلى جماهير معبئة نفسيا،وإلى معطى روحي وعاطفي تغلف به بضاعة الوهم،فكان أن أستغلت بذلك حالة الإحتلال الأمريكي والشعور بضرورة مقاومته لكي تحصل على الجمهور وعلى الشحنات العاطفية التي تحركه.ولم يواجه التحالف الزرقاوي-البعثي أي صعوبة في تكوينه طالما أن جمهور التيارين كان في حقيقته واحدا مهما اختلفت التسميات.

لم يكن هناك أية صعوبة في وضع ابن تيمية بجانب عفلق ولا مفهوم الحاكمية بدلا من مفهوم الحزب القائد ولا الجهاد بدل الانقلابية ولا الزرقاوي بدلا من صدام حسين.فمنذ أن أسس المسيحي "ميشيل عفلق" حزب البعث كحركة قومية عربية مناهضة للاستعمار في أواسط الاربعينيات ارتكزت الحركة على ثنائية الإسلام والعروبة كموكن اديولوجي في التعبئة والنشاط السياسي لتحقيق هدفها في إعادة تأسيس الدولة العربية الواحدة والتي هي المعادل الإسلامي لدولة الخلافة التي ينشدها الإسلاميون.وفي ظل حكم صدام وابتداء من الحرب الايرانية-العراقية بين عامي 1980 و1988 وانتهاء بالحرب مع الولايات المتحدة عام 2003 كان الخطاب البعثي قد تشبع تماما بمفردات إسلامية خالصة كأحد مستلزمات الصراع سواء ضد ايران الشيعية أو ضد الولايات المتحدة الصليبية الكافرة.

ولأن البعث كشف في النهاية أنه لم يكن مشروعا وطنيا بل غطاء سياسيا لتحالف قبلي ومذهبي يرمي إلى العودة إلى الإمساك بالسلطة والثروة التي فقدها بعد الحرب،ولأنه فاشي بطبيعته ويرفض منطق التطور التاريخي والإختيار الحر فقد كان من المتوقع أن يخوض حربا ضروسا من أجل استعادة ما فقده من سلطة وثروة.هنا التقى التياران البعثي والزرقاوي في إختيار العدو الذي هو أيضا نتاج الكراهية،رديفة صناعة الوهم،فكان العدو بالنسبة للبعث هو أغلبية الشعب العراقي،اي الشيعة والاكراد،التي نهضت لتمسك بأيديها فرصة حياتها في أن تحكم نفسها بنفسها،وهو ذات العدو الذي رأه الزرقاوي عقبة في تحقيق مشروعه الجهادي.واذا كان الشيعة والاكراد هما العدو فان العودة للسلطة بالنسبة للبعث وتحقيق غاية الجهاد بالنسبة للزرقاوي كان مناخ اللاواقع والحلم الذي جمعهما معا في حومة العداء الأعمى تلك.

في نهاية المطاف فإن ما تكشفه هذه الحلقات المعقدة من سيرة الزرقاوي ومحطات رحلته المثيرة وشبكة الإهتمامات الاقليمية والدولية التي أحاطت به هو أن الرجل قد تحول إلى ظاهرة أثارت كل هذه الاسئلة والتقولات حوله.ولم يكن القصد أبدا هو إهالة المزيد من الغموض على هذه الظاهرة المحيرة.وبالتأكيد فان غايته لم تكن أساسا ولوج الدروب السهلة لنظريات المؤامرة أو أن يرتع من خيالاتها. كما أنه لم يطمح لأن يدون تاريخاً

للزرقاوي أو للمرحلة التي ظهر فيها، أذ أن تلك مهمة فوق الطاقة المتوفرة والإمكانات المتاحة، ولكنه ابتغى أن يطرح أسئلة وأن يجتهد في الإجابة على البعض منها، من خلال إزالة الظلال التي صاحبت هذه الظاهرة، عسى أن تجلي الأيام والسنين القادمة تلك العتمة القصية التي أحاطت بها من كل جانب.